حيـاة الرّايــس

ليت هندا...!

وقصص أخرى. ما قبل المجموعة وما بعدها.

دار الكتاب

العنوان : ليت هندا...!

المؤلف : حياة الرّايس

الترقيم الدولي : 978-9938-872-71-2

الطبعة : الأولى 2024

المطبعة : المغاربية لطباعة وإشهار الكتاب MIP Livre

الناشر : دار الكتاب

نهج مالاقا – المنار 1 – 2092 تونس

الهاتف : 031 874 71 216+

موقع النات : www.maisondulivre.com

© جميع الحقوق محفوظة للناشر

مقدمة

قبل إصدار مجموعتي القصصيّة الأولى «ليت هندا...!» في التسعينيات (1991)، كنت قد كتبت قبلها مجموعة من القصص، على مدى عشرية الثمانينيات، كلّها. نشرتها في الجرائد والمجلات العربيّة. لكنّني لم اضمّنها في المجموعة. الحقيقة أنّني تنكّرت لها: قصص البدايات تلك. ونشرت فقط القصص، التي كتبتها كلّها، في بداية التسعينيات. في أقل من سنة تقريبا. سنة 1991. عندما أحسست بطفرة إبداعية، مفاجئة. وبنضج إبداعي معيّن. وبإضافة وتميّز. وتفرد بأسلوب خاص. وببصمتي الخاصة في كتابة القصة.

حينها شعر بعض القراء والنقاد بشبه صدمة. لغياب تلك القصص، الرومانسية، الشعريّة، عن المجموعة. والتي قرأتها في منتدى القصاصين باتحاد الكتّاب التونسيّين. والتي أحبّوها. وتابعوها في الصحف التونسيّة، طيلة الثمانينيات. وبقيت في ذاكرتهم. رغم أنّني أقصيتها من المجموعة. والحقيقة، حتّى أنا لم تسقط من ذاكرتي تماما... أحسست أنني ظلمتها وأقصيتها، بنوع من التعسف. تخليت عنها وأعدمتها. فكأنّما أعدمت جزء من تاريخي الأدبي القصصي. بحجة

تطور الكتابة القصصية عندي. رغم كونها تدلّ على مرحلة تاريخية، في مسيرتي الإبداعية. لذلك فكّرت أن أتصالح معها. أن اعتذر لها. أن أخرجها للملإ وللقراء. أن أعتذر لهم عن غيابها. أن ألبّي رغبتهم في حفظها (التي عبّروا لي عنها مرارا وتكرارا). أن أعطيها حياة ثانية. أن أجمع شتاتها علّها تغفر لي تشردها، وتشتتها، مبعثرة بين الصحف. كأنّها مولودا غير شرعيّ. أن أستعيدها كجزء ضاع مني. وقد كنت أحسبه ليس منّي. لكنّه لم يتخلّ عنّي. ولم يسقط بالتقادم من ذاكرتي. فكان أوفى منّي. لذلك رأيت أن أضمّنها في هذه الطبعة الحالية.. كشاهد على مرحلة تاريخية معينة: مرحلة البدايات بكل ما تحمله الكتابات البكر والقصص الأولى من مذاق خاص ونكهة مختلفة.

كما فكرت أيضا أن أضمّن هذه الطبعة، قصصا كتبتها بعد مجموعة «ليت هندا...!».

بحيث تصبح الطبعة الجديدة تحتوي على ثلاثة أقسام:

قصص ما قبل «ليت هندا...!»

قصص «ليت هندا...!»

قصص ما بعد «ليت هندا...!»

وإليكم الاختيار قرائي الاوفياء.

حياة الرايس

قصص ما قبل مجموعة

«ليت هندا...!»

امرأة وليست ككلّ النساء

عاش طوال عمره معها عيشة عادية، هادئة، باهتة، بسيطة، رتيبة...

كان يتمنّى لو يصرخ يوما في وجهها... أن يمسكها من ذراعها ويخضّها... لا لشيء سوى أن يتخلص من هذه الألوان الباهتة التي صبغت حياته. كان يتمنى لو يرجع يوما ويجد تغييرا في البيت ولو في الأثاث.

يهمّ مرارا أن يصرخ فيها ولكن لا يستطيع؟ أليست هي التي عملت على خدمته خمس عشرة سنة. لا يتذكّر فيها أبدا يوما، تأخيرا في موعد الطعام ولا تقصيرا في واجباته. ولم يسمع منها أبدا كلمة تأوّه أو حركة ضجر. كما لم تعص له يوما أمرا أبدا.

كان يتعمّد أن يشركها في أي مسألة أو رأي. فتجيبه على عادتها:

«الرأي رأيك ولن أعرف أكثر منك...»

كان يغصّ بريقه ويسكت.

عدّة مرّات حاول أن يصحبها معه في سفراته إلى بعض المؤتمرات أو اللقاءات الثقافية التي يدعى إليها. ويعرّفها على أجوائه وأصدقائه... كانت تعتذر دائما:

«روح اتفسّح أنت. وسأهتم أنا بالأولاد، مازالوا في حاجة لي. ولا أستطيع أن اترك شؤون البيت ومسؤولياته...».

كان يتمنّى أن تقرا وتتابع الافتتاحية، التي يكتبها كلّ يوم. ويتعمّد جلب الجرائد يوميّا إلى البيت. وكان عندما يسألها على سبيل المثال هل قرأت جريدة اليوم؟

تجيب «أخبار اليوم مثل أخبار البارحة».

صار يكثر البقاء في المكتب. ولا يرجع إلى البيت إلا في ساعة متأخرة، من الليل. فيجدها في انتظاره لتقوم بآخر واجباته... دون أن تسأله أبدا لماذا تأخر؟

فقد علّموها منذ الصّغر أنّ الرّجل له الحقّ أن يتأخر وأن يفعل ما يريد.

وما على المرأة إلا أن تسهر على راحته...

أخبرها ذات يوم أنّه مسافر لأحد الدّول الشقيقة لحضور مؤتمر أدبي. جهزّت له حقيبته، في صمت. وربّما لم تتجرّأ حتى على إنزال دمعة وودّعته: «الله معك» ولم تزد، لكنها كبّت وراءه إبريق ماء على عادات أهلها في تشييع المسافر...

في اليوم الثاني أو الثالث للمؤتمر. وفي إحدى قاعات الفندق التي تعجّ بالمؤتمرين وبغوغائهم وبدخان سجائرهم... مرّت به بسرعة. لمح منها مجرّد قامة طويلة نحيفة. وشعر فوضوي أشقر... لكنّها ما كادت تمرّ أمامه حتى تراجعت بسرعة وارتفعت يدها، الملازمة للقلم، إلى جبينها، كأنّما تريد ان تتذكّر شيئا معيّنا... وسرعان ما أسعفتها ذاكرتها وكفتها مشقة التفكير: فنطقت: «قد أبعدت يدها عن جبينها، فبانت له عينان زرقاوان في صفاء البحر، عميقتان، ينطق الكلام منهما، قبل فمها. لهما بريق آسر يجعلك تقرأ ما بين السطور...» قالت: «الأستاذ جمال حسام الدّين؟» رئيس تحرير جريدة الضّياء أليس كذلك؟ عرفتك من صورك

أنا «سناء سعيد» محرّرة بمجلة «المرأة».

الحقيقة أنني من المتابعات لافتتاحيتك... أقرؤها دائما. لكن ذلك لا يمنع أن يكون لي تعليق عليها أحيانا... فآخر افتتاحية لك، قد طرحت فيها، مسالة الغربة، التي يشعر بها الكاتب، عندما لا يجد صدى لكتاباته، حتّى من أقرب النّاس إليه. ثم أضافت ماذا تقصد بأقرب النّاس إليك؟

أنا اعتقد أن أقرب الناس إليك هو من يسكن قلمك وفكرك ولغتك وكيانك وليس من يسكن بيتك.

طرق قليلا كمن وجد بُعدا جديدا في فلسفة الكون وقال:

«فعلا أثرت موضوعا كبيرا. يحتاج إلى كثير من التحليل...

ويصعب اختصاره في إجابة. ما رأيك بفنجان قهوة نكمل به حديثنا؟».

_ «لا مانع لديّ».

جلسا في حديقة. بعثرا فيها بعض الكلمات... وقاما تاركين للحديث بقية أيضا...

طلب منها أن تراسل جريدته. وألا تنسى خاصّة أن تعطيه رأيها في الافتتاحية دائما.

رجع من المؤتمر ورأسه مثقل بذكرى امرأة، مرّت به بسرعة ولكنّها لم تمض بذات السرعة. بقيت راسخة في كيانه. سألت سؤالا وتركته في حيرة إلى الأبد...كان لديها تعليق ولكن يبدو أنه هو الذي تعلّق بها...

بقي ينتظر كتاباتها كما عرض عليها. ولكن يبدو أنها أهملت الموضوع.

«عجيب؟... حرام أن تضيع أفكارها سدى... بل يجب عليها أن تكتب».

لكن ماذا يهمّني أنا ان كتبت أو لم تكتب؟ لا لا هي ليست امرأة عادية حتى لا أهتم بها. إنها ليست مجرد امرأة عابرة، مرّت بحياتي. لقد تركت أثرا جعلها تختلف عن كلّ النساء... يجب أن انسي الموضوع. أنه لا يحتاج إلى كلّ هذه الأهمية. لكن هل كلّ يوم

سأعترض امرأة تبدي رأيها في كتاباتي؟ ورأيا ليس ككل الآراء... فها هي زوجتي عشت معها خمس عشرة سنة، ولم تبد رأيها ولو مرة واحدة فيما أكتب.

وكانت المفاجأة ذات يوم. أن جاءه ظرف منها، به كتاباتها على شكل مقالات، بعثت له بها. أخذها، فتحها، برعشة، بفرح، بخوف، يحاول أن يقرأ ما بين السطور... لعلّها بعثرت بعض الكلمات المقصودة... قرأها وأعاد قراءتها، فسّرها، وأوّلها، لعلّها خصّته بشيء ما. خابرها انه تلقى رسالتها وانه أُعجب بكتابتها. ممّا شجّعها على الاستمرار. وسألها عن رأيها في الافتتاحية بالمناسبة. صار كلّ يوم، يرفع السمّاعة ويسألها رأيها فيها. ثمّ صار لا يكتبها حتّى يسألها رأيها... تغيّرت أفكاره وصارت له رؤية جديدة للوجود بل صار يعرف معنى الوجود.

كتب ذات يوم «الصدى هو الوجود» أصبح لحياته معنى وصار هناك خيط متين يشدّه للحياة... تشبّث به وتمنى ألا يفقده أبدا.

صار يختلق الفرص للالتقاء بسناء. معها عرف الحقيقة. عرف أن المرأة هي الوجود. وعرف ما هو أخطر من ذلك. عرف أن هذه المرأة بالذات هي وجوده. عرف أنها امرأة وليست ككلّ النساء. انخلع قلبه لهذه الحقيقة وارتبك. هل يعني ذلك انه لم يعرف المرأة، منذ خمس عشرة سنة؟ والآن عندما عرفها هل يمكن أن يتركها؟ فتضيع منه فرصة العمر. هو رجل الفكر والمعرفة، كيف يسدّ على نفسه آفاق المستقبل؟

وكيف ينسف ماضي خمس عشرة سنة؟ ويح نفسه، ما أصعب أن يختار وأن يقرّر. أيترك زوجته وأمّ أولاده، لأجل أفكار سناء؟ زوجته لم تفعل شيئا يسيء إليه. وسناء فعلت كل شيء، لتخلق منه إنسانا جديدا، سعيدا.

هيّ الوحيدة التي جعلته يغضب، يفرح، يحزن... فهي المرأة التي عرف معها معنى الضحك والبكاء.

ولكن أي عذر سيقدّمه للأهل والجيران إذا ما قرّر يوما أن يعيش حياته كما يريدها؟ هل سيقول لهم انه بُعث من جديد؟ سبحان الذي يحي العظام وهي رميم... سناء نمت تحت جلده. حتّى صارت كلّ خلية فيه تسبّح باسمها. أنه يكاد يسمع ردود الناس... وها هي تصل إلى مسامعه:

«مسكينة زوجته. لقد ظلت طوال عمرها، مخلصة، متفانية له ولأولاده. هل هذا هو جزاؤها؟ صحيح أن الرجال لا يؤتمن جانبهم أبدا».

لكن هاجسا في داخله يهتف بسناء صباح مساء... سناء التي خفق لها قلبه وقد كاد يموت في صقيع اخرس: «إنني مدين لها. فقد بعثتني من جديد للحياة».

سناء سيمفونية متناسقة أنغامها. كلّ حركة فيها، كلّ خطوة، كلّ نظرة هي نغم يعزف على أوتار روحه بأعذب الكلمات. وهو الذي وهب نفسه للقلم والكلمة.

احتار في أمره ولم يجد مخرجا. فذهب يكتب عن الاختيار، عن الحبّ، عن المرأة، عن الوجود، عن السعادة، عن الأنانية... وهنا توقف. أو وجد لنفسه عذرا «الأنانية» أنه لا يريد أن يكون أنانيا، ليبني سعادته على حساب الآخرين... فرح وتهلّلت أسارير وجهه. لقد وجد في النهاية مخرجا. لكنّه لم يستطع أن يسكت هاجسا في نفسه: «أليس موقفي هذا ضعفا وتهرّبا؟ أليس الحبّ مسؤولية أيضا؟».

أوّل قصّة كتبتها في حياتي في الكويت.
نشرت بجريدة «الرأي العام» الكويتية.
في 1 مارس 1983

الـمـــوكـــــب

كان الوقت سبتمبر وكنت قد قطعت تذكرة السفر وجهّزت حقيبتي للعودة إلى بغداد للالتحاق بالجامعة في آخر سنة لي للتخرج.

ليلة السفر أعلن التلفزيون الخبر:

لقد اندلعت الحرب العراقية\الإيرانية وأغلـق مطار بغـداد الـدولي. كان ذلك سنة 1981

إنّها الحرب إذا!... وإنّا لمبعثرون.

ماذا سنفعل؟

في الأول قلنا ننتظر، فسيفتح المطار بعد أيام.

مضى الأسبوع الأول، الثاني، الثالث... والمطار لا يفتح.

بدأ الناس في السفر بالبرّ عن طريق الأردن.

وأنا ماذا سأفعل في سنة التخرج هذه؟

و«فارس» الذي ينتظرني؟

ووجه مدينتي؟

بدأت استفسر عن الوضع بالكليات فعرفت أنها مفتوحة.

قيل لي لا تذهبي فسيراعون وضعكم...

لم أقتنع

كنت مشغولة بشيء آخر

كنت أريد أن أرى وجه مدينتي...

ترى كيف يصبح وجه المدن وقت الحرب؟

ولم أكن قد عشت حربا بعدٌ في أية مدينة.

ترى هل مازال الناس يبتسمون؟... يعشقون ويحبون ويسهرون؟

والنساء هل ما زلن يتزيّن؟ أم انه قد لفهن السّواد والحداد؟

والرّجل في مدينتي هل مازال يشعر بالأنثى؟ تمر وتترك عطرها.

كل الناس يرددون ما تبثه الأخبار من عدد الجرحى والموتى وعدد الغارات وسقوط الطائرات وحطام البنايات ودخان الحرائق إلى غير ذلك...

وأنا منصرفة عن ذلك إلى شيء آخر. مهووسة بالبحث عن قلب مدينتي النابض بالحياة دائما كما عرفته. ترى كيف أصبح إيقاعه؟

أترصده وأتسلل إليه، من بين صور الغارات وصفارات الإنذار وركام الأنقاض ودمار البيوت والخراب... التي تملأ شاشات التلفزيون. أتصيد اللقطات الخاطفة، لشوارع بغداد: لبيوتها وكلياتها وأسواقها وحدائقها وخمائلها... هل مازالت ورود جنائنها تضمّ أسرار الأحبّة؟ أم هل أفشت غارة السرّ وشتّتت الودّ؟

هل مازال شاطئ «دجلة» يطفح بهمس العشاق. يتمشون على ضفافه في شارع أبي النواس؟

والنساء هل ما زلن يخفين أنوثتهن تحت عباءاتهن المواربة؟ هل مازال للناس قدرة على الضحك؟

أم أنّ وجوههم قد مسّها الحزن في هذا المأتم الكبير؟ هل مازال متّسع من الوقت لإرتشاف قهوة الصبّاح؟ والشاي، هل مازالت الاستكانات (الكؤوس) متداولة بين الأيدي السخيّة؟

رائحة الياسمين؟ هل طغت عليها رائحة الحرائق؟

هل مازال الشبان ينتظرون البنات أمام المبيت الجامعي؟

هل يمكن للحرب أن تقضي على تفاصيل الحياة اليومية وأن تخمد خفق القلب النابض بالحياة؟

البحث عن وجه مدينتي يعذّبني. ينخرني من الداخل. هل يمكن أن تقضي الحرب على هذا الوجه؟

هل يموت هذا الوجه برصاصة تُوجّه له ما بين العينين؟ أم أنه يغتسل في نهر دجلة فيشرق من جديد؟ وإذا فُقد هل يدرج في قائمة المفقودين؟ أم أنه أصبح ترفا والسؤال عنه بذخا لا يليق بالمحاربين؟

وإذا كان هذا الوجه غير ذي بال وغير مهّم. فلماذا نحارب ولوجه من؟

تتوالى الأيام والأسابيع... والمطار مغلق. وحقيبتي أمامي مغلقة، كميّت ترفضه المقابر.

هل أعدل عن السفر أمام هذا الخطر؟

كيف أتخلى عن هذه المدينة التي آوتني وعلّمتني واحتضنتني...؟ ووجهها؟ كيف سأرى وجهها؟

حادّا كبقايا الأنقاض. كان قراري السفر.

ابتلعت أمّي غصّة، لا تعرف معها هل تتركني أم تمنعني؟ أبي كان يهرب إلى الأخبار. يدفن وجهه فيها. علّه يجد خبرا، ينهي هذا النزاع والتمزق الداخلي بين الذهاب والأذهاب.

نداء المدينة يتعرّش في داخلي...

استقل الطائرة من تونس إلى عمّان. لأواصل الرحلة إلى بغداد، عن طريق البرّ وكانت عمّان قد فتحت معبرا، بينها وبين بغداد وتحوّل الطيران الدولي ناحيتها.

في المطار أشعر باليتم. كل النّاس متّجهون إلى مدن الحياة وأنا متجهة إلى مدينة الموت.

من عمّان ركبنا حافلة. واتخذنا طريق البرّ للوصول إلى بغداد.

تزاحم العراقيون، أمام الحافلة، شوقا إلى بلدهم. تصوّرت فارس يمدّ اليّ يده، لأصعد درجات الحافلة، صعدت بخفّة وفرح...

كانت الحافلة مكتظة بالعراقيين، العائدين لبغداد. وكنت الوحيدة الغير عراقية والعائدة إلى بغداد أيضا.

عندما دوّى محرك الحافلة وانطلقت. تراجعت قليلا في مقعدي. لأسند ظهري وأريح رأسي... جاء أمامي وجه «فارس». ترى أين هو؟ أكيد أنه بالجبهة. سرت في جسدي رعشة. ماذا لو لم أجده؟

تزدحم صور المدينة أمام عينيّ... تتسابق صور من أعرفهم... إلى من سأتّجه أوّلا؟ أتجمّد فجأة. ماذا لو لم أجدهم؟ أتصور نفسي أجول بين مقابر المدينة بين شواهد قبورها أبحث عنهم... شواهد مفقودة، قبور مبعثرة، مقبرة بلا ذاكرة: دمار حقيقي.

«فارس» هل كان ينتظر عودتي ليعرف قراري بشأن زواجنا؟

أحمد كان نهما. لا بدّ وأنّه قد التهم الحياة في لقمة واحدة، قبل أن يذهب إلى الجبهة. نضال أكيد أنه يختلس الوقت، ليبعث قصائد الحبّ إلى حبيبته تماضر. تماضر أكيد أنّها بالمستشفيات الآن بالعمل التطوعي... سأتجه إلى المستشفيات أوّلا، هنالك رجال ينزفون...

سألتقي بشاب أسمر، تفيض سمرته نخوة، بلسما على جراحه. سيشعر بحدس الجريح أنني أتيت من أجله.

رفيقه بجانبه يحتضر ولا ينتظر شيئا إلا وصول حبيبته، ليعترف لها بحبّه، قبل أن يقضي... لقد كان يؤجل ذلك إلى ما بعد انتهاء الحرب. ولكن ها هو ينتهي ولا تنتهي الحرب...

حطّت رحلة العذاب. نزلت. أخذت حقيبتي وتقدمت قليلا في ساحة المحطة. ثمّ تسمّرت في مكان ما. ابحث عن النهار يغتسل في عيني مدينتي. صوت غير غريب عني يلحق بي:

_ من أين اتجاهك؟ سأرافقك فالطريق غير آمنة.

_ شكرا لا أنوي دخول المدينة الآن. سأذهب لزيارة النهر أوّلا.

حذاري إنّهم مركزون على ضرب الجسور هذه الأيام.

_ أمّا الجسور التي تربطني بالنهر فإنّها شيء آخر».

كتبت بعدما أغلق مطار بغداد 1981
بسبب الحرب العراقية\الإيرانية.
نشرت بجريدة الشرق الاوسط بتاريخ 10\6\1985
جريدة الصّباح 8 أفريل 1986.

احتفائية الجنون

... مازلت أركض هاربة...

التفت يمنة ويسرة مخافة أن يرى أحد أذيال الخيبة التي أجرّها... أتوقف فجأة.. أتراجع خطوة.. لأدوس أذيالا غامضة، عالقة بي، تعرقل ركضي.. وتلوي عنقي إلى الوراء.

... والذاكرة تنتفض طيرا ذبيحا... يسيل دمها حتى اليد... أرفعها في وجهي مرارا... أتأملها... ألعنها أشفق عليها... أتناساها... وأواصل الركض... تمور الهزيمة في داخلي.. تفور.. تكسّر كلمات شررا خامدا في دمي...

تشتد أوجاع الذاكرة!...

أنفض عن عيني ضبابا... مرارة... وأواصل الركض.. يُثقل الهوان الرأس.. تُخدّر الفجيعة الجسد... يتقوس الظهر.. أتكوّم وانكفئ على النفس. أخفي الوجه عن كلّ الوجوه... كتلة من اللحم المهروس، تدوسها عربات الموت في مهرجان من التكفير والغسيل... قوى

ملعونة تعربد في داخلي بلغة غامضة ومعذبة... تسيل رقصا على جسد دام..

الملم أشلائي وانطلق من جديد سهما في وجه الذكرى... والذاكرة تنتفض طيرا ذبيحا.. يسيل دمها حتى اليد..

يتدفق الدّم من الأظافر.. أظافر دميت من الانغماس في الياف جسدك..

كان لا بد أن أحفر ظهرك وشما داميا.. مثخنا بكل العذابات الصامتة.. بكل أوجاع السنين. بكل الأحلام المستحيلة... حتى تفهم سرّ انتمائي للماء، لليل... للقمر.. للريح..

إنك لن تعرف معنى اجتماع هذه العناصر في لحظة من لحظات الوجود..

إنك لم تمتلئ مرة بالكون فتطلب التلاشي.. الذوبان.. لتنزرع بعد ذلك نبتة بريّة عصيّة على الأرض.. نجمة متمردة على السماء.. ريحا جنونية، تولول في الجهات الأربع: أريد جهة خامسة... جهة لم يطأها القدر. خطوة لم تطأ قبل هذا الزمان مكان.. بذرة بنت الرّياح اللواقح. تشبّ جنونا في الفضاء.. تشب حريقا في الوجدان.. لكنك إذا ما أتى الليل يسند الطفل فيك رأسه للقمر وينام.. أما أنا فقد سقطت عدة نجوم ميتة في جسدي تلك الليلة..

وإذا لم تكن تحسن مناجاة القمر.. ولا تحول دون موت الجسد.. ولا تفهم لغة الرّيح... ولا تتواصل مع لغة العذابات الصامتة.. فقد حولتني إلى بركان ميت..

ما أصعب أن ننفجر في صمت..

أن نموت في صمت..

أن نحبّ في صمت..

أن نجن في صمت..

ما أشد أوجاع الصمت..!

أقمت على صمتي زمنا.. انطلقت بعده جوادا يكابد حزن المسافات...

وصمتي نافورة دم تنز من حلقي... مشبعة بأوجاعي صرخت الأرض:

ـ «الرحيل هو الخلاص!»

ووجدتني في أول طائرة... أسبح في فضاءات من الغمائم البيض.. تغسل أوجاع الذاكرة.. أغوص: أتوغل فيها شفافة مثل الصّفاء..

اصطفيت الوجوه كلّها حتى لم يبق إلا وجهك.. واصطفيت العذابات كلها حتى لم يبق إلا جرحك. فإذا أنا وإيّاك والجرح في علاقة

دامية.. تسيل حتى اليد... تخرج اليد من بين الغمائم البيض... راية انتصار لجرحك.. وتخرج معها صرخة تلخص كل البكاء..

انخلع من مقعدي... في نوبة أخرى. أريد مواصلة الركض.. أشق الصمت توقفني المضيفة.. تغسل وجهي.. تحاول إعادتي إلى مكاني.. انفلت من يدها سهما، أريد غرفة الطيار..

لن يغسل الذاكرة إلا حادث يعيد خارطة الأشياء.

كتبت بتونس.
نشرت بجريدة الصباح التونسية (ملحق فكر وفن)
بتاريخ 22 جانفي 1985
ونشرت بالشرق الأوسط في 1985/5/5

صلاة سمراء أو طقوس سمراء

دهر:

وأنت إلى هذه الصخرة موثوقة بآخر الشارع حيث تعودت انتظاره.. في ليلة مثخنة بالظلمات ترفض أن تنتهي وترفضين انتهاءك فيها.

تشدين إلى جسدك فستانا لم تفلح الرياح في اقتلاعه منك ولكنها كانت تثير زوبعة من الشعر حول وجهك الذاهل، حبّات المطر تعلق ببعض الخصلات فتلبدها على وجهك الذاهل لتنزلق بعد ذلك سواقي حول عنقك وباقي الجسد... وتشتد حاجتك للدفء، ويشتد المطر...

مطر:

في النفس وجع.

«متعبة أنا... أسافر فيك... أحاول أن أرسم في عينيك خارطة الوطن».

تشرذمت الذات.

حلم:

عنيد... عنيد... عنيد...

ما ينفك يراودك عن نفسك.

«الحلم لص... يختلسني إليك».

الأغراء بالزمن الآتي!...

«بلى الحلم جسور تصلني بأناس أبحث عنهم ولا أعرفهم.

يطلع الصباح. الجسور تتجمع غريبة حولي».

اليوم يزحف. يزداد ركضك حول عربات الموت

تُستباح المدينة وأنت المحراث، الذي يغور فيها طولا وعمقا.

قفر:

أسوارها اشلاء خارجها... بما فيها.

تغوصين عميقا في جوفها. تدفنين غربة... غربة... غربة... ذنبا، جثة هامدة، تركض في كل اتجاه...

«تتسابق المسافات في داخلي».

لا تستطيعين التماسك، ولا اللحاق بجنونك، تغرسين عينا باهتة في هذا وذاك. الوجوه محنّطة.

«يروعني الصنم! أثب على التماثيل أضاربها ببعضها البعض تتطاير شظاياها لهبا في كامل أرجاء المدينة».

تتطاير، تحلق التماثيل في فضاءات غاب بوغا وتتهاوى عليك الأصنام رادمة أشلاء أسوارك.

عمار:

«نمت عمرا أفقت بعده»:

المدينة وعهدك بها... مقبرة كبيرة! أغدقت آفاقها رائحة حضارة عفنة تتسيّب من جلود نساء، مصبوغة مشوهة... ورجال أدمنوا هذه الجثث، خُتم على حواسهم شمّ رائحة القرنفل.

سحبت جسدك من تحت الأنقاض. تحاملت حتى وصلت الصخرة. تهالكت عليها من جديد. حيث تعوّدت انتظاره، في ليلة مثخنة بالنجوم ترفض أن تنتهي.

«وأرفض أن انتهيها!».

سأستلقي للشجر يفتح مسّام جسدي، يُبدّد الحزن المعسكر فيها. لتسكنها رائحة الزيزفون.

«لن أهب نفسي».

للشجر الأخضر أنا بعد اليوم! حتى الموت حتى الحياة.. عيناك مسمّرتان بآخر الشارع...

المطر يحفر سواقي بين حنايا الأضلع، يسرى مع شرايينك، يغسل أدرانا تنحدر وديانا، يهمي جميلا على جسد انقلب إلى واحة تنضح بمائها ويهمى غزيرا على أوراق الشجر: كونا يعزف نغما جديدا، يُسكت صوت نحيب صامت بداخلي عاشرني طويلا.

حياة:

حياة تتحفّز من بين الأضلع. واثبة من الأعماق... تنبثق شعاعا من العينين يخترق الكون رغبة في الانصهار، في الذوبان... في... بدا الكون وجها نضرا كالشمع. المطر كوكبة كبيرة: تتلألأ جوهرة. انتشر زهر اللوز والليمون... عجّت الأرجاء برائحته...

«تتخللني رائحته، ترديني ثملى... تلاشيت حتى اشتهيت الموت، اشتهيت الموت فيك».

«أيها الرجل الذي ما زال يلهو بلعبه... ويتسلّى... عن قراءة سطور لهيب قصّة صمت في عيني امرأة تحّب...».

«أيها الطفل الفارع الطول تغريني سمرتك...».

تجتاحك قامته سنديانة تعلو في داخلك تضم أشلاء أسوارك... تتعاظم... تفوح... تنمو... يتناثر أريجها على شفتك:

«أموتك!».

«في داخلي يكبر حبّ.

ينمو الحلم... بين يديّ.. نجمة على كفى. أتيتك ألم تلاحظ؟»

انتظريه صباحا يشرق على جبينك...

الحلم... الحلم...

«وجهك يلاحقني».

يتراءى لكَ في كلّ شيء.. في المشط.. في الكحل.. في القلم الذي به تنزفين... وجهه يغزو خارطة الوطن.

«أدمنك... أدمنتك».

يستحيل العيش خارج حدود الوطن...

«صدرك مساحتي الوحيدة التي أستطيع أن أمارس فوقها طفولتي وجنوني...».

زلزال:

تشمّين رائحة الزلزال...

«يدي تمتد.. تمتد.. إلى آخر.. آخر.. الصحراء.. ولّيت ظهرك.. تواريت ابتسامة زهو تراقص شفتيك».

«أجهض الحلم في رحمي».

دمعة كبيرة في وجه الصحراء...

«أيها الطفل! إنني امرأة!

قدرك والولادة ولو في زمن الموت».

الوطن (ملحق الثلاثاء) 30 ديسمبر 1983

كتبت بتونس نشرت في جريدة الصباح التونسية 16 سبتمبر 1986

مجلة «الفكر» عدد 10 سنة 29. جويلية 1984

خارج حصار القصيد

مازال هذا المساء باردا. حتى عندما عدت من عنده. وقد كنت أهرب إليه دائما. عندما يشتد حصار الموت علي. في هذه الأمسيات من أيام العمر الباردة. ولكن بمجرد أن أتركه يهاجمني الموت من جديد.

وقد كان هجومه هذا المساء مريرا فاجعا. على غير طعم الموت الذي قد تشتهيه أحيانا وتتمنى ألا تعود منه للحياة.

ولكن طعم الموت هذا المساء كان عقيما، باهتا، رماديا، محرجا وخانقا.

لقد كان انتشاره اليوم في البيت مرعبا. فبمجرد أن فتحت الباب ودخلت. انزلقت إلى غرفتي. ثم سرعان ما خرجت منها، إلى بقية الغرف الأخرى. أبحث عن شيء... أهرب من شيء... ورائحة الموت تغزو المكان. تتسرب إلى الزوايا كما تتسرب رائحة الغاز عندما تنسى القنينة مفتوحة.

والموت ينتشر على الجدران. ويخرج من شقوق الأرض. ومن السقف ويحتّل الشرفة أيضا ويتسرب إلى جسدي.

لقد كنت أشعر بأشياء عدة تسقط من جسدي الواحد تلو الآخر. وأنه بدل الخلايا والشرايين يحلّ خشب، خشب. أحسست بقامتي خشبية تتجول من غرفة إلى أخرى.

وصلت إلى غرفة النوم. وقع نظري على حقيبتي اليدوية اقتربت منها في حذر التقطتها، كمن يختلس شيئا. اتجهت نحو الباب. كنت أهم بمغادرة البيت. عندما رن جرس الهاتف. تسمّرت في مكاني. وبقي نظري يجول بين السماعة وقفل الباب إلى أيهما أتجه؟ وأيهما أسقط؟ كنت أريد أن أفتح الباب. وأترك الهاتف للموت المزروع في هذا البيت يرد عليه. طاوعتني يدي في ذلك. فتحت الباب. أغلقته ورائي، تحت صوت الهاتف. أردت أن أُسمعه قراري بالخروج. ولكنه كان ملحاحا ظل يلاحقني حتى الدرج. نزلت نصف الدرج وهو يرن. وقفت لحظة، وهو على إصراره. عدلت، ثم رجعت درجتين. توقفت من جديد. لماذا هذا الإلحاح من الجرس؟ هل أحدا يموت أيضا؟ أم هو عناد الحياة؟ سخرت منه. ما معنى العناد في أرض موات؟

خطر ببالي فجأة أنّه يمكن أن يكون «باسم» يريد أن يطمئن على رجوعي من عنده. خفّت خطاي نحو الباب لذكره. فتحته وهويت على السماعة.

جاءني صوت تعودته في مثل هذه الأمسيات الباردة. صوت كأنه خيط المطر. ترانيمه تقع عليّ، مثلما تقع حبات المطر على الأرض. فتغسل وحشتها الباردة.

جاء صوتها يؤكد انتماء إلى نفس الأرض، ونفس الطقس. اعتقدت دائما أنني ولدت وإياها في نفس الأمسية من أماسي تلك الأيام الباردة. وبقينا نقاوم باقي العمر للتدثر بالدفء. وبدون مقدمات وكما تتشقق الأرض عن بعض الأوضاع التي تضيق بها. تشققت بلقيس صديقتي بالسؤال:

- «كيف عدت من عنده؟»

وهي تعرف أنني أعيش هذه المدة بعض نهاياتي معه. أو بعض مخاضاتي. وتعرف أنني أعيش موتا في داخلي، وحياة داخله. وكانت تدرك كما أدرك خطورة حالة يتداخل فيها الموت بالحياة، والمخاض بالنهايات. كانت تخشى أن يولد الأمل ميتا. أو أن تخرج الحياة من الموت مقتولة.

كانت تعرف أنه أعطاني الحياة ذات يوم. وأن الحياة التي يعطيها البشر للبشر تظل مهددة بالموت دائما. وأن هذا الموت قاتل لا محالة. لأنك تحياه بكل خوفك من فقدانه وبكل إصرارك على الحياة. ولأنه يلخص كل أنواع الميتات.

كان هذا الموت يتربص بي، عندما أترك باسم وأعود إلى البيت.

كانت هذه حياتي مع باسم طوال أربع سنوات. أزوره في ذلك البيت النائي. وأعود إلى بيتي محملة ببعض القصائد. أفتحها على سريري وأقرأها ثم أعيدها إلى حقيبة يدي. تلك القصائد التي كتبها بخط يده والتي لا يستطيع أن يمنحني سواها. والتي لم يكن يستطيع كتابتها في بيته تحت رقابة الزوجة والأولاد. ففي البيت يكون «موظفا من نوع خاص».

كنت أنتشر بين تلك الأوراق، القصائد حتى تبلى. وكان باسم يجددها يوميا حتى صارت إدمانا. وعشت مع الأوراق وعلى الأوراق أربع سنوات ولو جمّعتها لبناء بيت لاستوى البيت قائما. ولكنه يظل من ورق.

ولأن «الشعر» عجز عن أن يمنحني سقفا. فقد قررت اليوم الخروج عن حدود القصيد.

– لذلك جاء صوت بلقيس مستفسرا معزيا. وقد حدست أنني اليوم عائدة من جنازة أو ربما وصلتها رائحة الموت.

كانت كأنها تسألني!

– «هل شيعت اليوم الحياة؟ أم أنها ما زالت تخادعك وتتبرج لإغرائك وتفسد عليك موتك؟» قلت لها كمن يلملم أجزاءه بعد حادث سير:

– «أشعر أن رأسي مهشمة!»

لم يقع عليها الخبر. ربما اعتادت رؤية رأسي مهشمة أكثر منّي.

– «لعلك أطلت الوقوف أمام المرآة اليوم!»

– «بل وقفنا معا وعكسنا المرايا في كل الاتجاهات. وقلبناها من كل وجوهها... كانت وجوه أولاده تحاصرنا من كل جهة. وتنعكس أحيانا في صورة كوابيس. فنتراجع أمامها فزعين. ثم نقبل عليهم مطمئنين ببعض قطع الحلوى ولا نملك أن نفعل غير ذلك. ونعود إلى علاقتنا لنجد أنفسنا أمام جدار. لذلك أشعر برأسي مهشمة من هذه «العلاقة الجدارية».

– «ولكن ما سر وقوفك أمام المرآة اليوم؟ لا بد أنك تمشيت خارج الطقس فبدأ ظلك أطول منك».

وكانت تعرف رغبتي الخامدة في التخلص من قيد بارد يأسر معصمي .

كما كانت تعرف اللعنة التي تحل بكل من أراد التطاول على الطقس والزمن.

– «اليوم أردت الحياة خارج القصيدة. تمردا على القوافي وانفلاتا من سجن الوزن. لقد طالبته أن يرفع عني حصار قصائده لأنتمي مطلقا إلى الشعر. الذي لا ينفي رغبتي في الانتماء إلى سقف وبيت وطفل.

ليس قدري أن أعيش في بحور الخليل أبدا. حيث كل الدنيا لك ببحارها وأراضيها وسماواتها ولكنك عاجز عن إقامة سقف بها.

ولأنني ضقت بهذا الفضاء الفضائحي فقد اشتدت حاجتي إلى جدران، تضم رائحة قدر، تحكي قصّة بيت دافئ. وصبية تجمعوا في تخت واحد لينناموا تحت سقف واحد».

– «ولكن هل صرت في زمن أفضل عندما خرجت من هذا الحصار؟».

– «ربما لذلك عندما عدت إلى البيت رأيت رائحة الموت تخرج من شقوق الأرض ومن السقف ومن الجدران. وحتى من النافذة ولذلك أنا خارجة الآن تاركة البيت».

– «إلى أين؟»

– «لست أدري ...».

كتبت بتونس

نشرت بجريدة الصباح 4 مارس 1986

الشمس تنزف مطرا
أو مقبرة الحبّ

سحبت شرودها من كوكبة الدخان والثرثرة. وألقت بنفسها في الركن الآخر من المقهى. وسمّرت عينيها باتجاه الباب.

زفرت... فهبّت من صدرها ريح صلصل. ألهبت بين أصابعها سيجارة يتعالى دخانها سحبا، مفعمة، آمالا... أحلاما... آفاقا... ورؤى... تتهادى الخيلاء في السماء...

أشعلت أخرى... تنفث فيها مقتها لهذا الزمن الفاسد... تتأملها... وتشتهي لو تنصهر مثلها، ثم تتبخّر... في غيمات طفيفة... لذيذة... منعشة... لتعانق روحه...

لكن يبدو أن الكرسيّ يشدّها أكثر إلى الأرض. والسيجارة تبخل عليها بآفاقها، المتصاعدة نحو السّماء... تفاقم القهر في أعماقها... فارتفعت يدها في حركة جنونية، إلى السيجارة وشدّت على نارها... انطفأت السيجارة ببلاهة خرساء.. وأشعلت رأسها بألف سؤال وسؤال:

هل يفقه هذا العالم كل أسئلتنا؟ أم أنها تبتلعها كهوفه؟ حتى إذا ما وقفنا طويلا أمام مغاوره في إصرار بغل... تململ الجبل من موضعه من الكرة المقفلة... ليسقط على عيوننا المسمّرة باتجاه السماء... وأعناقنا المشرئبة نحو القمّة... رذاذا من التراب... فيغشى علينا من هول المراوغة... ولمّا نفيق نجد أن سوادا مريرا من القيء على وجوهنا... يشوّه طاقتنا العنيدة على السؤال... هل يفقه هذا العالم حنيني إلى طفولتي؟... لعله سيفهم ذلك إذا ما حدّق يوما مليّا في وجهي المفجوع. وسط هذا العالم الخراب.

اهتزّ المكان فجأة. إذ انتصب بقامته عند الباب... سنديانة تنبع ماء، حبا وحياة...

جلس أمامها... يزرع البنفسج تحت قدميها.. ويحاول تضميد أرض خربتها البراكين...

حدّقت فيه مليّا... ودون أن تخرج من دائرة صمتها:

«وهذا الإله الخرافي. أي قوّة خفيّة ومبهمة، تحملني إليه؟ وأي إعصار جارف يجتاحني... ليسلمني إليه... لا لن يأتيَ عليّ كما تأتي الرياح على آخر باب اقتلعته العاصفة... لست بابا يجأ إليه المسافرون، أيام الشتاء. ولا حائطا يلجأ إليه المذنبون زمن الخطيئة.

من أي طينة أنا؟... ومن أي طينة هو؟..

كل ما أعرفه أنني لا يجب أن أحبه حبّا تعارف عليه البشر. ولن أرتبط به رباطا، يحيل هذه الزوابع إلى حفرة ومعتقل.

أيّها الإله القادم من الأساطير القديمة!

_ « لماذا تأخرت؟»

_ «وأنا في طريقي إليك... كانت خطواتي تنسج خيوط زمن جديد... ابتدأ حين لفحني محيّاك لأوّل مرّة... وقد أفقت على صباح جديد أحسست فيه أن عمر انتباهي قد ابتدأ من وهجك». أحسّت أنه على وشك أن يختلسها من هذا الوجود، ليدسها بين عظامه... ويهرس أعصابها المتشنجة، المتحفزة، للسؤال... لولا أن ماردا تحرّك في داخلها:

_ «وإذا سألتك عن هذا الزمن الجديد؟».

_ «مع كونها ترعبني أسئلتك... لكن اعتقد أن الجواب سيفرحك... حبيبتي... زمننا الجديد هو الزواج!».

_ «لا تستعجل نهايتي!».

تقلّصت ملامحها فجأة... وجثم على أنفاسها كابوس، طالما عشّش بين أضلعها... وتحفّز هذه المرّة في أنفاسها. فأرادت أن تبصقه في وجه كلّ زوجين ينتظران الموت وسط ثلاجة أزلية... في شرود أبله... كلّ على طريقته... لكنّها كتمت أنفاسها... فاصطكّت بين أسنانها. كلمات مضطرمة:

_ «نظام الكون فاسد... نظام الكون فاسد. وهذا زمان لم يعد يقنعني... مقبرة الحب هو الزواج ...».

ثم رفعت رأسها بثقل كل النواميس، التي نحملها، على ظهورنا، قرونا وقرونا...

ـ «يا حبيبتي!... الزواج، ثوب اهترأ بطول الزمان. وكثرت ثقوبه... فخفت موازينه... لم يعد من شيء يستقر عليه... زيادة على كون قياسه لم يعد يناسب جسم هذا الزمان...».

ـ «أنت لا...».

ـ «أعرف ما ستقول: أنني لا أحبّك... ولو كنت أحبك... لأنني أحبّك لا أريد أن أتزوجك... وعلاقة الحب بالزواج ليست علاقة حتمية».

ـ «الحب مبرّر كل الأشياء».

ـ «لم يعد يقنعني الحبّ. إني أبحث عمّا وراء الحبّ».

ـ «الزواج هو حصن الحبّ المنيع».

ـ «إذا كان كذلك فلماذا لم يحفظه؟ وأنت تعرف أن أطول عمر للحبّ بعد الزواج لا يتجاوز الثلاث سنوات...».

لكني لست ضدّ الزواج كمؤسسة اجتماعية. ولكن ضدّ أن ينقلب الحبّ إلى مؤسسة اجتماعية أو اقتصادية أو....

الحبّ أن نقيم الليل... نترصّد ومضات البرق... ونسترقها في ليالي الشتاء... وأن تهوي عليّ في منعطف كل طريق. كالجبل تغمد

أنفاسك في ثغري... بكلّ قوّة الحرمان والتحدّي... وتخمد صوت القبيلة في داخلي... والعسس أمامنا والوشاة وراءنا... والعيون طبول تقرع أذاننا ولا نتوب... بل نواصل الركض تحت زخّات المطر. يغسل وجهي ووجهك... لتراني وأراك أجمل».

كتبت بتونس نشرت بمجلة «الرؤيا»
مجلة اتحاد الكتّاب الجزائريين العدد 4 سنة 1983
ثم نشرت بجريدة الصباح 15 جويلية 1986
جريدة «الفينيق» الليبية العدد الثالث 1996/1/22

محبوبة

ركل الباب الخشبي، المشقّق، القديم، برجله. ففتح بسهولة. ودخلت منه جيوش الرياح التي تظلّ معسكرة، كل ليلة، من هذا الفصل، القارس. تنتظر أوبته المتأخرة لتهجم على البيت. تعبث بأغطية الصبية النائمين، على الأرض. غير بعيد عن الباب... كما تستغل الفرصة، سياط المطر، الغزيز. لتعابث نومهم، وتدغدع وجوههم، بقطراتها المشاغبة...

هجم الظلام على الظلام. وتلاطمت كتل السواد. وغابت ملامح البيت الصغير، في معركة أمواجه... لكن رعب الصبية، كان أقوى من كل ذلك وأشد. فما أن أحسّوا بعودة أبيهم إلى البيت، في ذلك الوقت الذي ألفوه من عزّ نومهم. حتّى سحبوا الأغطية فوق رؤوسهم. واندسوا تحتها. يريدون الغوص في الأرض. والاختفاء تحت طبقاتها، من شدة ما يلاقون فوقها، من هول هذه الليالي...

ومع ذلك انبعث صوت من تحت ركام الظلام هامسا:

ـ «أمي... بابا... الكراس... القلم... أوراق التصوير... ستطردني المعلّمة... أصحابي....».

ركل الأب الجميع. ومرّ فوقهم، مترنحا... حتى وقع على أرجل بعضهم. فما حرّك الرعب أحدا منهم.

رمى صالح يده على دكّة، قريبة، قصيرة، تخرج من الحائط. يريد الوقوف. لـمّا تهالك على الدّكة، تلمّس المصباح، الذي كان قد انطفأ بفعل البؤس...

أعاد إضاءته بعناء، ثم قام قاصدا «محبوبة». فبانت قامته ممتلئة، مترهلة، قصيرة، تتكسّر عليها بعض الظلال والأضواء. التي كشفت عن خصلات متلبّدة على الجبين. تحتها عينان، منتفختان، حمراوان، كجمرتين بصدد التحول إلى رماد. تسيل منهما مادّة لزجة صفراء حتى الأنف. تبدو أحداهما أضيق من الأخرى.

مثل تلك المادة فوق أسنانه. شفته السفلى متورّمة، متدليّة، مائلة نحو اليسار، ممتلئة بتلك المادة. كان يتحرك متثاقلا، متمايلا نحو «محبوبة» فسقطت الأضواء على أزرار قميص، فتّقه، بطن زاح عن مكانه. اندلق وازداد ضخامة، بفعل انعكاس الظلال الجانبية، التي ضخّمت حركة يديه أيضا. وهو يتلمّس طريقه. فبدا كأنه شبح يطأ الأرض لأول مرة....

ظلّ يتقدم مغمغما اسم «محبوبة»... ثم فجأة تراجع كأنه عدل عن خطته. هوت كتل اللحم المترهلة بظلالها وأضوائها وتهالكت ثانية على الدّكة:

_ «محبوبة! يا ابنة الكلب... أين أنت؟

تعالي وهاتي العشاء إلى هنا».

تعالى صراخه وتعدّد... بعدما جمّد عروق الصبية، تحت جلودهم. فبدوا هياكل عظميّة تحت الأغطية البالية... لـمّا لم تأت محبوبة ولم يرّد عليه أحد وخذله الظلام. قام بعصبيّة. بعثت فيه بعض القوّة. أزاح ستارة بالية كانت تشطر الغرفة شطرين: قسما للأولاد وقسما للأبوين... أزاحها بقوّة فوقع العمود الذي شدّها إلى الحائط على الأرض.

عرف صالح كيف يلتقطه وأين يتجه به...

«قومي يا ابنة الكلب!... قومي وإلا كسرت رأسك بهذا العمود... أين العشاء؟ أين النقود؟ أين الأولاد؟... أمازلت تبعثينهم إلى المدرسة؟ أريد المال. وإن لم تجلبوه لي، فسأقتلكم كلكم... أين العشاء؟» مع كونه يعلم أن محبوبة تترك له العشاء دائما فوق ذلك الكرسي التالف الظهر، جنب السرير، من جهته. حيث يبعثره دائما ويعربد وينام.

اتّجه نحو تلك الجهة ولم يرافقه ضوء المصباح الضئيل بل قادته العادة... ضرب الكرسيّ بالعمود. سقط شبه الكرسي مطيعا على الأرض... لم يكن هناك عشاء فوقه!

فقد صالح عقله.

ـ «أين العشاء؟ ألا يوجد عشاء كي أقلبه؟... أيتها (....) سأريق دمك... وآكل من لحمك... سأكسر رأسك».

ورفع العمود واتّجه به جهتها...

كان هناك دائما جسم هزيل، محموم، ينتظره. بوجه قد شوّهته الكدمات. وشعر خفيف، ينز منه العرق. ليركلها ويجرّها منه إلى الأرض. كما يحلو له أن يتسلى بها آخر مطاف سهرته...

رفع صالح العمود الحديدي وهوى به... فلم يصطدم العمود بغير غطاء بال. ولم يُحدث سوى تجاويف فيه...

محبوبة لم تكن بفراشها!...

ومع ذلك ظلّ صالح يهوي بعموده على الفراش ويضرب... ويزداد عصبية، كلمّا لم يسمع صياحا وعويلا. وتملّكته نوبة هستيرية... حتى هوى أخيرا على حافة السرير. ونصفه متدلّ إلى الأرض. ولمّا أحسّ برعشة برد تسري في كامل جسده، تحامل واندس تحت الغطاء. بحث عن محبوبة من جديد. وحين اشتد به البرد، تيقن أن محبوبة ليست هناك...

تذكر أيضا أنه ضربها هذا الصباح ضربا مبرحا. ورماها كدس عظام في ركن من أركان الغرفة. وصفق الباب وراءه وخرج. بعد أن ركل أكبر أبنائه الذي جاء يدفعه في بكاء مرير عن أمه.

لكن النظرات المنبعثة من كدس العظام الملطخة بالذل والعذاب والظلم والحقد والنقمة ظلت تلاحقه وتخرج له من بين كتل الظلام... وفي النهار كان يفرّ من حانة إلى حانة... وهو لا يدري أنها تلاحقه وترتسم له في كل كأس. وتبرق وسط النبيذ... يخرج شعاعها منه ليصيبه في قلبه. وينخره في كل مكان من جسمه.

انتفض صالح في فراشه ودسّ وجهه في الغطاء. فانبعث من تحت الغطاء نحيب مرير...

ـ والله ما كنت أريد ضربك يا محبوبة. وعندما ارتفعت يدي إلى وجهك هذا الصباح. ما كنت أريد وجهك، بل وجهه الذي يلاحقني كابوسا كامل الليل. ويده التي ارتفعت بإشارة آمرة:

ـ «انزع البلوزة. وتعدّى خوذ حسابك».

لقد أهانني أمام بقيّة العمال. ولم أنتقم منه. وأهنتك أمام الأولاد. ولم أنتقم منه. وصفعتك عدة مرات ولم أنتقم منه....

أقسم لك يا محبوبة. أنني ما كنت اكرهك. ولكنني أقوم الصّباح فلا أجد ما أفعل بيومي. وليس لدّي عمل أتجه نحوه. فاتجه إليك... أرجوك أن تفهميني يا محبوبة. أقسم لك أنني أحبّك. أنت زوجتي وأم أولادي...

أرجو أن تحاولي إقناع والدك... أن تقولي له أن زوجي يضربني. وأنه لم يكن يقصد ذلك... لا أريد أن يهينني أبوك أمام أخوتك. سأذهب إليك غدا صباحا... وأرجعك معزّزة مكرمة... وان عارض أبوك... فإني أتوسل إليك... وأهمس في أذنك... وأقسم لك أنني لن أرفع يدي في وجهك أبدا... ولن أبعث بك إلى ديار الأكابر يذلونك ويشغلونك كالدّابة. ويقتّرون عليك القوت تقتيرا... لن أدفع بك مستقبلا إلى التسوّل... أقسم لك أنني لن أضرب الأولاد بعد

اليوم... سنبدأ حياة جديدة. خالية من... وهنا سمع طرقا منكرا على الباب...

ثم دخل عليه شرطي:

ـ «هل أنت السيد صالح الورغي؟»

ـ «نعم»

ـ «لقد وجدنا زوجتك جثّة مهشّمة بين قضبان سكّة القطار!»

تعال معنا للتعرف عليها. اخبرَنا الناس أنها زوجتك.

كتبت في الثمانينات

ونشرت في التسعينات في مجلة «المرأة» بتونس

سنـــــاء
أو
ليلة الاحتفاء الأخير

أزاحت سناء ستائر النافذة. وظلّت واقفة. ترقب ذلك القرص الأحمر. حتى توارى تماما. بعدما توهّج وتوقد ثم انطفأ واختفى... أعادت الستائر مكانها، تغطي كامل النافذة وكلّ الحائط. وانسحبت إلى داخلها تنتظر لقاء الفجر..

تؤثث وحدتها وتزيّن النفس لاستقبال هذا الموعد. الذي أرادته أن يكون مع طلوع الفجر. مع تداخل الخيوط البيض بآخر الخيوط السود... كذلك اشتاقت أن تتداخل لديها العوالم. وتحملها إلى الآفاق الأوسع والأرحب. وقد ضاق الجسد بحدوده وفاض به الشوق. وحنّ للاغتسال بندى الفجر، صفيّها الأوح. فاستدعت وأقامت من أجله ولائم الحبّ والشوق.

جلست سناء الى مائدة عليها غطاء، من الستان الأبيض. يتدلى حتى الأرض تغطيها أنواع شهيّة من الثمار والغلال وصوان بها الّذ الأطباق. مع مشروبها المشتهى دائما.

صبّت لنفسها كأسا من هذا الشراب، لتبتلع به حبه انزلقت من كفها إلى حلقها. ثم ارتخت بين الوسائد نشوى، يتخللها البياض والصفاء، المنبعث من ستائر الحرير. التي تغطي كل الحيطان. لقد أرادت أن تعانق حبيبها غارقة غائمة في شفافية البياض.

بعد فترة قامت سناء مثقلة بموعد الفجر... اتجهت إلى خزانة ملابسها. فأخرجت شراشف الحرير البيضاء. التي جهّزتها لمثل هذه الليلة وأسبلتها على سريرها مع مخدة كبيرة من ريش النعام.

أخرجت قميص نوم جديد، أبيض، حريريا، شفافا. واتجهت إلى مرآتها.. وقفت طويلا تتأمل وجهها... قد احتوت عيناها سواد الليل كله، ولمعتا ببريق غريب. تشع منهما فرحة لقاء وعناق وتوحد. وتفيضان بأسرار عالم يكاد يكشف عن نفسه. وجنتاها تتقدان بوهج الحياة وقد تلخصت في هذا الموعد..

شفتاها ممتلئتان شهوة وشهيّة، تنضحان بفرح أسطوري...

شعرها خيوط الليل تنسدل على جسم ندي كالفجر وقد لمع جيدها كبريق سيف يفتح الظلام.

عندما لبست قميص نومها الحريري، الذي جهّزته خصيصا، من أجل هذه الليلة. بدا جسمها تحته ممتلئا، رخوا، طريا، به رقرقة وتوق إلى موعد الفجر.. أبيض، متوردا، متوهجا بالحياة، متقدا انتظارا... تكاد تمسّه أنامل حياة جديدة... يتدفق بدماء تعد بعمر جديد.. تدغدغه رغبة خفيّة في خرق حجب خفية.. تتحرك فيه لذة

اكتشاف ما بعد الفجر... يكاد يتشقق عن رغباته. فاكهة فاض بها النضج. تغور فيه شهوة الاتحاد بزائر الفجر... يضيق بحدوده. فيخف حتى يكاد يطير إلى العوالم التي ينتظر... إلى هذا الفجر الذي سينشق عن صبح جديد.. ينادي حبيبه فيتوزع النداء في كامل أرجاء الجسد صراخا صامتا... قبل أن تصعد إلى سريرها، اشعلت «سناء» شمعدانات الفضة، الموزّعة في كامل أركان الغرفة. مع الاثنين المنتصبين عند رأسي السرير... ثم عبقت الغرفة بروائح المسك والعنبر تتصاعد من المبخرة النحاسية، تخترق عوالم خفية ومغرية. غابت سناء عبر دوائرها.

واختلطت رائحة البخور برائحة الياسمين. هذه الشجرة التي أطلت عليها ذات يوم من النافذة واقتحمت حميميتها فامتزجت برائحتها.

بدت «سناء» في غرفتها التي تغطيها ستائر وشراشف الحرير، يملأها عبق البخور والياسمين، تضيئها الشموع: ملكة ترفل في البياض. وتغيب في عوالم الضباب الشفاف وتستعد لاحتفاء خاص.

تقدّمت إلى سريرها. مترنحة في مشيتها. بدا قوامها متمايلا مع الظلال التي تعكسها الشموع. والتي تتخلّل جسدها ثم تنكسر على أطرافه، الجسد المثقل، الممتلئ، بنشوته وبانتظاره...

ارتمت على سريرها وأفرغت زجاجة خلاصة عطر الياسمين، على جسدها. فكأنما أوقدت فيه أعراس الحمّى... وبدا الجسد يضطرم بناره وبانتظاره، وسط سكون الكون... لم تعد تستمع إلا إلى صوت

جسدها... الذي بدا يخرج من أريج البخور. ومن نور الشموع. ومن الحناء التي تخضّب يديها. عروسا تستعد لزواجها:

«يا عشقي ويا شهوتي.. يا وجع الفرح المحموم باشتعال الأفق... يا صرخة المطلق تدوي في جسدي.. امتلئي.. امتلئي وسع الليل.. وسع النهار.. وسع الأبد... وسع الأزل... يا دمعة يشرق بها صوتي.. أتلاشي فتبعثني.. تتبعثر أجزائي فتجمعني. تتخلل الخلايا وتلملمني.. ينحلّ الجسد مساحة لكل الشهوة.. يلتهم ليلا من اللذة.. فجرا من الفرح.. تنبض خلاياه يخفقك.. تسبّح باسمك يا زائر الفجر. يتكدس الليل فوقنا.. يؤخذ يفرحنا.. يسكننا ولا ننتهي.. يقيم فينا ولا تنتهي.. يتلاشى أمام غزو خيوط الفجر البيضاء.. يخرج منّا الليل.. يخرج مكرها.. ولا نفيق.. يحلّ النهار.. وتتحسّس معي طعم الفجر تحت لساني.. ينهزم النهار يتلاشى وينضوي.. ولا ننتهي.. فوق الزمان تحملني.. يا زهوي ويا كبريائي.. يا شموخي.. يا اعتلائي فوق الكواكب.. فوق الزمان.. فوق المكان.. يا غروري.. يا لصغر السّاعات والأيام.. يا لحظتي فوق الزمن ترفعني.. تملّكني عرش الزمن يا زهو الانتصار في عيني.. وراية الانتصار في يدي.. بك أعبر عالمي يا لحظتي تملؤني وتكبر في داخلي.. تتجذّر.. تنمو، تثمر.. تورق.. يا ظلي ويا واحتي.. يا سواقي الماء تشق أحواض جسدي..».

تأخذني فيتراجع العالم الذي كان يسكنني.. تنسحب الأرض تحت قدمي تملأ. رائحتك أرجاء الجسد.. يا وردة في عيني لا تسقط ولا تذبل..

اليوم تفتح شهيتي على العالم الآخر.. أغرف منه. أغرف ولا أرتوي. ظمأ صحراوي الحدود يجتاحني..

يا ظمأ كثبان الرمل ترتطم بجسدي..

يا هجير الظهيرة يستعر في باطني..

يا ظمأ المسافات تبين في جسدي..

يا انشراح الأسارير على وجهي..

يا ضحكة بركانية شقّت حدود الجسد.

يا ضحكة ردّد العالم صداها..

يا ضحكة مسّت كل الناس.. وتسرّبت إلى الشوارع والأرصفة..

ووصلت هناك إلى الأزل... تبشر بحلول موكب الفرح.. ويفيض ضحكي على الأفق فيخفق نبضه.. يتردد صداه في داخلي... يا فرحي الخرافي يصحو من قديم الزمن...

ضحكة أسطورية معفّرة بفرحي.. يا وجها طافحا بالفرح — الألم... يا وجعا يتخثّر في دمي..

وتمسّني يد زائر الفجر فتدق أجرا س السّفر... في أرجاء جسدي. فيخفق خفقة أخيرة ثم يطير من الفرح..

يا امتدادي ويا نشوتي.. ويا اختزال المسافات تحت قدمي.. يا طفلا يسند رأسه للقمر وينام.. يا طفلا يفترش صدر الحبيبة مساحة لكل الأنام..

يا طفلا خاف شرور العالم فاختبأ في صدري..

يا طفلا لأول مرة يزورني.. يا موعدا من الزمن القديم ينتظرني..

ستأخذني الليلة إلى العوالم الشهيّة.. يا رجلا مبلّلا بالظمأ.. وأنا خصبة...

خصبة... قريبة... قريبة... كأنني الحقيقة...كأنك الحقيقة تلهث حولي.. تخاف أن تجدني.. تبحث عنّي، امرأة خرافية الحضور.. كأنه الوهم وجودها داخلك... كأنها الحقيقة وجودك داخلها.. تتحسّس جسدها كطعم الوهم.. تفيض عليها تبتل من الظمأ.. يغرقك النهر.. فتهرب من الأرض.. لتجدها مختبئة في الأزل.. خصبة حتى الحياة.. أتلاشى كالموت داخلك.. تلملمني تقبل عليّ كالحياة... حياة تخلصت من أسر الزمان والمكان...

نوقد ولائم الشوق في الجسد ونصلي..

نشعل الشموع ونصلي..

نعبق البخور ونصلي..

نعتّق الشراب ونصلي..

الليلة يشرّع الكون على مصراعيه

الليلة أضيء شموعي فتضاء أركان مظلمة في الجسد. والحقيقة الليلة واضحة كفلق الصبح.. كقرص الشمس.

الليلة.. أعانقها.. وأطبق عليها ذراعيّ... شهية كليلة حب.

الليلة ينطفئ ذلك الركن المظلم من العالم... الليلة صلاة السكون. الليلة جواب سؤال الموت. الليلة تفكّ عقدة ذلك اللغز الأبدي. نقيم الليل. والظلام خشوع.. وشموعي علامتي إليك.. والياسمين رائحتك تنتشر مع خطواتك... مع طلوع الفجر.. وأنفاسك الندى ينسكب على جبيني.. وأنا إليك... تمسّني فتسري في جسدي رعشة نسائم أوّل الفجر...

تلك الليلة ظلّت «سناء» توغل في الليل وتتقدّم فيه.. تقترب من المطلق... من الحقيقة وتطبق عليها ذراعيها.. حتى خرجت من الليل تماما. من الظلمة نهائيا.

كان ذلك عندما خرج آخر خيط أسود... وكان قد خرج آخر نفس من سناء.

وعندما فارقت كانت الحقيقة قد ظهرت.

كتبت في باريس

ونشرت بجريدة الصباح 21 جوان 1988

مجموعة

«ليت هندا...!»

«ليـت هـنـدًا...!»

تهالك على السرير الحديدي. فغاص في غلالة شاحبة منبعثة من السهّارة... فارق ذهنه الغرفة. مخلفا جسدا هامدا. تجمّعت كل حياة في أصابعه السمراء. التي تحاصر لفافة تبغ رخيص، كلّها أعواد. يسحب منها أنفاسا ينفها سعالا...

النار تقاوم «أعواد التبغ»... الذهن يعيد تفاصيل اللّقاء الإذاعي مع «صديقه» الصحفي... لقد كلّفه هذا اللقاء عشاء كاملا، وعدّة قوارير من الجعة. ورغم أن العشاء لم يكن فاخرا، فقد استدان «محمود عيسى» ليدعو صديقه، إلى مطعم متواضع، وسط العاصمة. وانزوى به في ركن هادئ ليسمعه قصائده الجديدة... ولا يزال إلى الآن ينتظر ثمن القصيدة، التي نشرها في إحدى الجرائد الأسبوعية ليسدّد دينه.

النار تتثاءب وتتمطّى فوق «أعواد التبغ»... الأصابع تتحرك من حين إلى حين، لتنفض رمادا لا يقع في المنفضة... الذهن يغرق في تفاصيل اللقاء، ويتلذذ به كرغيف خرج لتّوه من التنور... فجأة انتصب واقفا، امتص بشراهة، نفسا جديدا من لفافته فخرج من بين شفتيه خيط دخان يرقص زهوا:

ـ «لقد كنت نجما متألقا، هذه الليلة، في سماء الإذاعة، غصبا عن كل «الأصدقاء»... ليت هندا سمعت صوتي هذا المساء... وليتني استطعت أن أخبر ليلى، وسعاد وبثينة... ولكنه كان لقاء مباشرا، ولم أكن متأكدا من إجرائه حتى آخر لحظة».

اغتبط، وزهت تجاعيد جبينه، المحزونة دائما، اهتزت شفتاه الزرقاوين وانفرجت عن أسنان صفراء.

ـ «أين هي ؟ أين الرسالة التي فتحتها، ثم طويتها على عجل، قبل دخولي الإذاعة ؟ هل قرأتها أم لا؟... الرسالة التي استلمتها اليوم من بريد الجريدة!... ليتها تكون من هند...» سحب نفسا متوترا:

ـ «لقد حيّرتني هند... إنها تراسلني للمرة الرابعة، دون أن تذكر عنوانها أبدا..! ومن غير أن تضرب لي موعدا كبقية المعجبات. آه ليت هندا!....».

«أعواد التبغ» تنطفئ. يشعلها من جديد. الرماد يقع مرّة على الأرض ومرة في صحن به آثار طعام البارحة، أو قبل البارحة. أو قبل شهر... إذ يحدث «لمحمود عيسى» أن يغيب عن غرفته، التي يستأجرها مع صديق له، مدة قد تطول أو تقصر....

لم يجد عناء كبيرا في البحث عن الرسالة. لقد كانت مطوية في جيب سترته... فتحها ثانية وغاص في غلالة السهّارة... بين يديه الخشنتين ورقة، ناعمة، شفافة زهرية، حيّر عطرها ذاكرته؟... هل يعرف هذا العطر؟... هل شمّه سابقا؟... توغل في الورقة الشفافة كمسافر يدخل مدينة جديدة، مأخوذا بلّذة الاكتشاف... يهيم

ببناياتها، ثم يختار أجمل بيوتها: فيلا ذات باب خشبيّ، من الأبنوس، في حديقتها الخلفية، أرائك سعفيّة، منتشرة بين خمائل الورود، وهند تحتّل أقصاها مسترخية، ترتشف شايا بالنعناع، وتقرأ شعره، تجمع الياسمين وتقرأ شعره... والشمس، قبل أن ترحل، مالت على خدّها تقبلها، وتترك حمرتها مرسومة على بشرتها، البرنزية... وحيّره ذلك اللون حيّره! ولم يجد له وصفا... حيّره لون شعرها أيضا، وعنوانها!... ورسائلها المختصرة جدا... التي لا تتحدث فيها إلا عن حبّها للبحر والشمس والشعر...

الفكر حائر... والنار تقاوم «أعواد التبغ»... تنطفئ فيشعلها من جديد، عيناه تلتقيان بأكوام الليل، تتهاوى على النافذة الصغيرة، المجردة من كل ستارة... تتوغلان في العتمة... وجه مستدير تحف به جدائل سوداء.. هند قمر عال، عال... ودخان سيجارته يعلو، ثم يتبدد...

ـ «ترى كيف تعيش هند؟... بيت كبير يطل على البحر... غرفة واسعة، تدخلها الشمس، من كل جانب، غرف دافئة... أثاث عتيق نادر... تحف ثمينة... إخوة... أب وأم يجتمعون حول المائدة، ثم يفترقون... أو ربما لا يجتمعون... لذلك تضجر هند، فتقرأ الشعر وتبحث عن شاعر... هند في حاجة شديدة إلى شاعر. لا شك أن أباها، صاحب مركز كبير، وثريّ، لكن هل يستطيع أن يوفر لها كل شيء؟ هل يمكن أن يشتري لها الحب؟... هند في حاجة إلى رجل يحبها... هند تعيش في رفاهية كبيرة... وتملك كل شيء... ربما لها سيارة أيضا، تأخذها إلى المسافات النائية... ولكنها ملّت

كل ذلك... وانزوت في الركن القصيّ من الحديقة الخلفية... هند تجد طعامها جاهزا، سخنا، لذيذا كيوم مشمس... تدخن سجائر أجنبية، طريّة بدون أعواد، سجائر لا تنطفئ. ولكن هل تدخن هند في المقاهي؟... أنا لا أقبل ذلك؟... سأقنعها بعدم جماليته... أستغفر الله هند لا تذهب إلى المقاهي، بل تفضل البقاء في الحديقة الخلفية تتلذذ بقراءة شعري...

ترى كيف تنام هند؟... على فراش وثير، من الخشب الخالص، تندس بين وسائد الريش... وأغطية الصوف... آه كيف الدخول إلى عالم وسائد الريش؟... وكيف الوصول إلى العوالم المرمرية؟... آه ليت هندا!...

ترى هل تتزوجني هند؟... هند جريئة ستقف في وجه أبيها القويّ وتقول له:

_ «أريد أن أتزوج شاعرا!». هند شجاعة. لذلك أحبها... هند تملك كل شيء ولا ينقصها إلاّ الشعر... وأنا أملك الشعر... وهو كل شيء... عندها!».

انطفأت «أعواد التبغ» بين أصابعه، بعدما وقع رمادها على حافة سترته. ثم تدحرج على الحشيّة.

_ «آه لو تتزوّجني هند... سأغرقها شعرا... سأملأ بيتها الكبير قصائد... ولكن أباها هل يقرأ الشعر؟... هل يقدر الشعراء؟... أم تراه عدوّ الشعر؟...».

أشعل سيجارة من جديد:

ـ « إذا تزوجت هندا، سأحقق كل أحلامي. سأطبع كلّ كتبي على نفقتي الخاصة. لن أتسوّل في دور النشر بعد ذلك أبدا. بل سأقيم دار نشر... وسأعرف كيف أجعل كل الشعراء «الأصدقاء» يأتونني صاغرين، متوسّلين، متسوّلين، زاحفين، متملّقين، ذليلين... وحتى أولئك النقاد.. سأصّغرهم كلهم، حتى يدركوا حجمهم الحقيقي... سأنسيهم خيلاءهم وغرورهم، سأذلهم على أعتاب مؤسستي... لن يستطيعوا مقابلتي بسهولة، ستجعلهم السكرتيرة ينتظرون أشهرا حتى يظفروا بخمس دقائق من وقتي... سأستقبلهم فقط ليتفرجوا على مكتبي الفخم. كلاّ سأكون منشغلا بالردّ على التليفونات وتوقيع الصفقات... لن أستقبلهم!... أما ذلك الصحفي الذي أجرى معي لقاء سطحيا، سأجعله يدفع ثمن ذلك العشاء أضعاف ما دفعته... وصاحب الجريدة، الذي يقتّر علي تقتيرا... سأعرف كيف أصفّي حسابي معه... سأوقف جريدته وسأعيده بائع فطائر كما كان. لم لا؟ وأنا الرئيس المدير العام. وعلاقاتي راسخة مع كبار المسؤولين والوزراء...

أما «الأصدقاء» فلن أجلس معهم في المقهى أبدا، سأمر أمامهم، مع امرأتي الجميلة، الأنيقة هند، دون أن أكلمهم.. هند هي كل شيء في حياتي الآن... فلتذهب المعجبات الأخريات إلى الجحيم!... لن أسترضي ليلى أو دعد ولن أتوسل سعاد بعد الآن... لست أدري لماذا أحببتهن؟ إنهن عاديات جدا، بل تافهات، كما أني لا أفهم سبب غرورهن؟... سأنتقم من سعاد وأنسيها تلك التسلية اللعينة،

بضرب المواعيد الباطلة... كم انتظرتها في البرد، تحت المطر وعلى الأرصفة... حتى اعتلج البرق من دماغي... سأجعلك تنتظرين يا سعاد! العمر كله...».

توترت أصابعه فأوقد «أعواد التبغ» من جديد، سحب نفسا منهكا وعلّق.

ـ لعينة أنت يا هند!... لماذا تبخلين عليّ بموعد. أراك فيه ونتفق خلاله عن كل شيء؟...

آه تضرمين الشوق

وتحتمين بالبعد

لقد فاض صبري

فلا بدّ أن يهتدي إليك ليلي...

عاد إلى رسائلها يقلّبها.. يعيد قراءتها.. يؤولها.. لعله يجد عنوانها!.. فجأة هبّ واقفا، أنتبه مأخوذا نحو النافذة كمن ناداه هاتف! رجع نحو السرير، استدار نصف دائرة، داس برجله عقب سيجارته على أرض الغرفة: «لقد وجدتها!... سأنشر قصيدا أحمّله رسالة إليها: إلى عاشقة البحر والشمس والشعر....».

مرّ أسبوع أو أكثر، تلقى فيه «محمود عيسى» رسائل كثيرة... لكن رسالة هند لم تصل... وأتعبه عناده... لماذا هند بالذّات؟... وأحرق من أجل ذلك أكواما من «أعواد التبغ»... حدسه يقول له: أن هندا تختلف عن كل الأخريات، وأن شأنا كبيرا ينتظره معها...

وفي يوم ذهب فيه إلى الجريدة ليسلّم قصيدا جديدا، وجد رسالتها، فضّها بتوتر، استحى وندم لما فلتت منه صرخة أمام المحررين: «لقد ضربت لي موعدا!....».

ضربت له هند موعدا وجعلت علامتها إليه ديوان شعره، الذي سيكون مفتوحا بين يديها في مقهى – أفريكا – في الرابعة والنصف من مساء الرابع عشر من أكتوبر.

تهيّأ للموعد بفرح وتوتر وخوف... وعندما اقترب من المقهى ارتبكت خطاه.. ارتفعت يده لتفك ربطة عنقه أراد أن يرجع أن يركض أن ينسحب ولكنه صار أمام المقهى تمنى ألا تأتي ليبقى «الحلم» أو أن تتأخر على الأقل ليستطيع أن يعدل ربطة عنقه... كان يبحث بعينيه في كامل أرجاء المقهى... عندما أخليت أمامه طاولة ارتمى على أحد مقاعدها واحتلها... سوّى شعره، عدّل كتفي سترته وغاص داخلها، احتمى بها من خوفه، قفل أزرارها فضمت جنبيه أكثر، أحس بالأمان كأنما يقفل باب غرفته على نفسه. ألقى نظرة أخيرة على سترته: إنها أحدث ما عنده، بل هي الحداثة نفسها. عندما اشتراها وقف أمام المرآة ونظر إليها بعين إحدى معجباته... وهي الآن من نصيب هند... إن هند لمحظوظة به... غاصت عيناه في نسيج السترة المخمليّ فأحس بالهدوء نوعا ما، أشعل سيجارة سحب منها أنفاسا متتالية ثم داسها بسرعة:

«تستطيع أن تأتي هند الآن».

لقد تأخرت، لكنه سينتظرها كامل اليوم، لن يفرط في حلمه بسهولة... خفّ الزحام في المقهى، فلمح امرأة منزوية تقرأ كتابا، خفق قلبه: «لا بد أنها هند...» عدّل أنفاسه، تنحنح ثم سار إليها، فوجد أن التي بين يديها ديوان شعره: فتاة في مقتبل العمر، شعرها أسود، لكنه قصير جدا، قمحية اللون، تميل إلى شحوب، ترتدي بنطلون جينز، فوقه كنزة خفيفة بيضاء.

أغلقت هند الديوان الذي كان مفتوحا بين يديها وجعلت تقرأ شاعرها وتستجلي شخصيته...، تحدثه عن نفسه وتزيح برقة حجب بواطنه، تثير مواطن وتدغدغ أخرى، تكرر إعجابها به وبشهرته وهو يستمع إليها ويستلذ حديثها، يطلب المزيد، ويدمنها... كأنما فقد نفسه فجأة وصار يبحث عنها عندها. وأصبح شاعرنا لا يستطيع الاستغناء عن هند. كإنسان تعوّد أن يصحو دائما على صورة وجهه في المرآة..

كانت هند تريد أن تعرف كل شيء عن «محمود عيسى» أين يكتب؟.. كيف يعيش؟... وقد طلبت منه مرارا أن يأخذها إلى بيته مصدر وحيه وإلهامه... لتتعرف على العالم الجديد الذي أسّسه والجنة التي يهرب إليها من جحيم الآخرين والفردوس المفقود الذي استعاده والحلم الضائع الذي وجده واللذة الهاربة التي قبض عليها...

خذني إلى بيتك، إلى ركنك الدافئ الذي يزخر بالينابيع.... حيث الأثاث الأسطوري... والكائنات الغريبة، إلى حديقتك الخرافية، إلى

شجرة الزيزفون؟ إني لم أر قط في حياتي شجرة زيزفون، أريد أن أذهب إلى البيت الذي اعتلى أمامك حجرا حجرا ومازال يكبر..

أريدك أن تأخذني إلى القارات الألّذ ذات الأراضي السماوية، إلى المدن الغريبة، إلى الجزر القصيّة حيث تلوح أجنحة الأحلام، إلى النجوم الواعدة، إلى نجمة السعد إلى البحار السبعة...

«أريد أن أدخل عالمك الغرائبي حيث الدهشة، والانبهار...».

واقتحمت هند في يوم من الأيام عليه بيته ومن يومها اختفت... إلى أن كان اليوم الذي تلقى فيه محمود عيسى رسالة منها تقول فيها:

«صديقي الشاعر،

لقد راعني أن يجمع الفقر بيننا!

صحيح أنك أغرقتني شعرا ولكنه ليس كلّ شيء...

لقد عشت طوال عمري، في عائلة تتوارث الفقر...

ظننت أن الشعر والشهرة سينقذانني من فقري...

لكن جارنا الجزار إسماعيل كان يملك كلّ شيئا: بيتا مؤثثا وسيّارة...

وعندما طلبني للزواج!... فكّرت...

أعتقد انك ستقدّر الموقف!....

كتبت في: «باردو» أوت 1989

اغتيال على ضفّة نهر «السين»

لم تكن تعلم أنها هشّة كموجة أرداها الساحل زبدا مهدورا إلا يوم حجز جوازها...

وقد كان الحلم يركض بها نحو شواطئ زيّنتها وأثثتها منذ الطفولة...

المدينة اليوم تتحول في عينها إلى سياج أسطوري يعلو ويعلو حتى يسدَ كل أبواب الأفق، شوارعها أفاع تتوثب بها وتلتف حول عنقها... تهرب أنفاسها... تخنق...

لفظتها المدينة، ورفضتها المدن الأخرى... تقلّصت مساحة الدنيا في عينها... حتى وجدت نفسها بين فضاءين... بين الرحيل واللاّ رحيل... ولتعدل طاقة الإحباط الفائرة داخلها كدم شهيد، حملت مريم طفولتها وراحت تواصل حلمها المندحر على مقعد بسيط قبالة بوابة المسافرين بقاعة المطار... ترحل مع الراحلين وتعود مع العائدين...

استسلمت مريم لهذه المتعة التي تتقد داخلها مع كل انطفاء شمس... أدمنت قاعة المطار وأدمنت ذلك المقعد... وتعلقت بتلك

اللوحة الالكترونية:

باريس تلتمع وتنطفئ في عينها...

باريس حلم يصحو ويكبو داخلها...

باريس نجمة تعلو... تتألق كامرأة تتمنّع...

باريس كوكب ثلجي يتوهج تحت خيوط الشمس التي تشبك أرضها بسمائها... تتعلق مريم بهذه الخيوط وتشتبك في نسيجها...

وفي غمرة زهوها بدخولها حرم هذا الطقس المشرق... تذكِّر المضيّفة بقرب إقلاع طائرة باريس... تهبُ مريم من مقعدها منقادة نحو أشعة الخيوط الوهاجة... تشتد حركة المسافرين في بهو الغادرة... يتقدم الجمع إلى الأمام... ترَدُ مريم إلى الوراء...

لم تكن تشعر أنها هشة كموجة تتفتت على شواطئ الرمل إلا يوم منعت من السفر..

تتراكم على صدرها سحب كثيفة سوداء تضغط على موطن الشرايين من القلب...

في خضم الحركة المقتولة، تلتقط عين مريم، فتاة تسرع نحو بهو المغادرة بخطوات لم تعرف الخلاخيل الأسرة.

وصلت الفتاة أمام شرطة المرور، أظهرت جوازا أخضر كراية انتصار، فتح لها الممرٌ فعبرت بسلام.

ضغطت السحب السوداء أكثر على صدر مريم لتسدَ ما بين الشريان والشريان... وعلا سياج المدينة سادا ما بين الأرض والسماء... ونفثت الأفاعي سمومها في جسد مرسم..

اجتازت الفتاة كامل الممرّ الطويل بعد الجمارك بسلام، انعرجت نحو اليمين تريد البوابة رقم 56 ثم اختفت... لكنها لم تسقط من عين مريم...

ظلت تتابعها حتى نزلت مطار «أورلي»... رمت مريم بنفسها معها في شوارع باريس.

أحسَت بنشوة الإفلات من الأسوار الأسطورية، سمعت سلاسل الحديد تتكسر وتنفك عن معصميها... وقد هزّها رنين وقوعها على الأرض كأنما تخلصت الآن من أسر المدن العربية.

إنها تستريح الآن من تعب السفر في مقهى «دو فلور» في ركنها المفضل.. تتدثر ببخار القهوة المعطر بدخان سجائرها بحرارة أنفاسها المتجددة... من وراء الزجاج تتابع إيقاع المطر... خفيفا ثم غزيرا... ثم عيونا تشققت عنها السماء... وحبيبها يركض نحو المقهى مبلّلا... يدفع الباب... يبحث عنها في كل الوجوه... وسواقي المطر تجري مع وجهه وتسري إلى عنقه وصدره... تقف له... يرتمي عليها... يضمّها... يبللها.. يهرب البرد... يتوارى... يتقدان كجمرات تبعث من تحت الرماد... يجلسان يشربان القهوة معا... يدخنان... يضحكان يتبادلان أخبار البلد... يشكو لها وحدته وغربته... تلتمع عيونهما بألق نادر... تلتقي.. يغيبان يعودان... يأخذها من يدها،

يخرج بها تحت المطر... يرمي بها في غمرة شارع «سان جرمان دي بري» الطافح بأمواج الناس والمطر

ينزلقان بين حبّات المطر... يضحكان... يشهقان بالفرح... يتعانقان يقفان عند بعض الأكشاك، ينظران إلى الجرائد والمجلات، يتبادلان بعض التعليقات وبعض الأخبار... يشتريان بعض الصحف.. يغو صان من جديد في الشارع الرّاشح بالحركة وبالإعلانات البشر... ينسابان بينهم... سنبلتان تتمايلان مع إيقاع الرياح والمطر...

يقطعان إلى الرصيف المقابل يستديران مع شارع «رين».. يدلفان داخل المحلات، ينشرحان ويزهوان لجمال وأناقة المعروضات، يتفرجان على آخر إبداعات الموضة، يغتبطان باقتناء بعض الحاجيات....

يخرجان للأرصفة... يتسكعان... ينزلان تحت الأرض إلى محطة «سان سلبيس»... يستقبلهما جوف الأرض بدفئه... ينتعشان ... يقبلان على باعة الفواكه الاستوائية... يقضمان الأناناس والمانغا... يركبان الميترو... يستسلمان للآلة تقطع مغاور الأرض... يصعدان من جديد إلى ساحة «سان ميشال»... يصفعهما البرد من جديد، يشعلان سيجارتين... يضحكان يتعانقان... يركضان... يجوعان... يلتهمان البيتزا... يقصدان نهر «السّين». يصلان رصيف النهر... حيث باعة الكتب القديمة... يتفرجان على الصور العتيقة... تنفتح شهيتهما على الحياة دفعة واحدة... يريدان التهام باريس التهاما... يتمشيان على حافة نهر «السين»... يقفان إجلالا لهيبة

النهر... يسرحان... تنظر إلى عينيه اللامعتين بالضحك والضوء وألق الفجر...

تشاهد النهار يستيقظ في وجهه...

ورآها كأول مرّة جميلة كالشمس على الماء...

ناعمة كالصباحيات النديّة...

أحسّ كلاهما أن طفلا نزقا يتحرك داخله، يريد أن ينفلت... فقفزا يلاحقان الحياة الطليقة التي يجري بها النهر.... يركضان وراءها...

على الضفة هزمتها المسافات... كانت الذكرى هي التي تركض بها... نحو ذلك البلد البعيد...

رأت نفسها يوم خرجت مع سيل جارف غاضب من الطلبة يزأرون في الشارع كالأسود الجياع «نريد حرية... نريد خبزا...».

كُمشت يومها كحشرة، ورُميت مع حفنة أخرى من زملائها في سيارة الشرطة... ضُربت... وعذبت.... وألقيت في كهف مظلم ومجهول...

بعدما خرجت منه كان طعم الحياة قد فارقها وحلَ الموت في أوصالها... تحمل موتها في سرّها وتتجول به في أرجاء المدينة التي بدأت تضيق شوارعها حتى تحوّلت كلها إلى قبور ممتدة تعلو أسوارها حتى تحجب الأفق...

على ضفة «السين» أسلمت العين للنهر حتى سار بها إلى أقصى الحلم ... على هذه الضفة لم تكن تتصوّر أن أحدا يستطيع أن يُغرق الحلم أو يرتد به عكس المياه...

ومع ذلك استطاعت يد ثقيلة كالرصاص جامدة كالخشب أن تهبط على كتفها من الوراء لتجمّدها في مقعد المطار:

ـ «تفضلي معنا!».

ـ «؟ ؟ ؟ ؟...».

ـ «لتجيبي عن سبب ترددك الدائم على المطار».

كتبت في: «باردو» سبتمبر 1989

«عــزرائيــل والكـــاتــب»

عندما كان السيّد «عزرائيل» يشرب قهوته هذا الصباح الباكر كان يبدو عليه الانشغال واضحا بأمر تلك الضحية المهمة التي انتهى أجلها اليوم.

إنه على موعد هذا الصباح مع الكاتب الكبير «عمر الخالد» ليقبض روحه فيجب أن يستعد له استعدادا خاصا يليق به.

تناول عزرائيل دفتره، ضبط برنامج يومه، تأكد من أن السيد «عمر الخالد» على رأس القائمة، غيّر لباسه متنكرا وتسلل خفية، سيستقل سيارة تاكسي اليوم فالحريف مهم ويجب الوصول في أحسن الظروف مخافة أي تعطيل أو أي خلل – لقد كره ركوب الحافلات منذ أن وقعت له تلك الحادثة عندما سرق منه دفتره – لقد كان السارق يظنه محفظة نقود فلم يجد فيه سوى قوائم طويلة وعريضة لأسماء ربما يعرفها أو لا يعرفها، رماه السارق بغضب على الرصيف وواصل حرفته.

أما عزرائيل فقد دفع الثمن غاليا فقد كاد يرفت من عمله لو لم تشفع له أقدميته وخبرته، ولكنه عوقب مع ذلك بأن نفي إلى أسفل السافلين...

استنتج الملاحظون حينها أن نسبة الوفيات انخفضت كثيرا. لكنه سرعان ما استعاد مهامه إذ لا يمكن الاستغناء عنه فقد كاد العالم يأكل بعضه بعضا لانخفاض الوفيات وازدياد الولادات وقد صادف ذلك أيضا انتشار المجاعات وظهر حينها بين شعوب آسيا ما يسمى بالهيجوج والميجوج».

وقفت سيارة التاكسي بشارع «القدر» نزل عزرائيل وأخذ يبحث عن بيت «عمر الخالد»... قطع الشارع كلّه ولم يجد الرقم المسجل في دفتره فرأى صبية يلعبون الكرة سألهم عن بيت الكاتب الشهير «عمر الخالد».

- صاحوا كلم مع بعض:

آه ذلك الذي تظهر صوره بالجرائد والتلفزيون؟ نعرفه – ذاك هو بيته... شكر عزرائيل الصبية على مساعدتهم وشكر وسائل الإعلام العصرية على تسهيل مهمته.

وقف أمام باب الدار، رن الجرس.

ظهرت في الحديقة سيدة شابة، جميلة، لفت نظر عزرائيل بياض جيدها تمنى لو كانت هي المعنية بالأمر، رأت المرأة رجلا يحمل دفترا فصاحت به:

- من؟ فاتورة الكهرباء أم الماء أم...

- «إنها فاتورة الحياة» رد عزرائيل بصوت خافت.

- ماذا؟

- هل السيد «عمر الخالد» موجود؟ من فضلك!

- آسفة إنه غير موجود.

- أين ذهب هل يعود بسرعة.

- إنه رحل.

- رحل؟ لا يمكن أن يرحل قبل وصولي؟

«هل هناك من يزاحمني مهنتي؟ لا! لا يمكن»

- لماذا لا يمكن؟ هل كان يجب أن يستشيرك قبل أن يرحل. إنه لم يرحل إلا هروبا من البشر وملاحقتهم...

- لكنني لست من البشر سيدتي!

- لست من البشر؟

- أقصد لست من هؤلاء البشر المزعجين... ولكن أين رحل.

- رحل إلى قريته، أين تريده أن يرحل؟ قلت لك أنه هرب من البشر...

- جيّد جدا إني أعرف بيته بالقرية سألحق به مباشرة.

- أرجوك! إنه لا يستقبل أحدا...

– لا! اطمئني سيدتي فأنا لست من أولئك الزوار الثقلاء... أنا لا أزور إلا في الوقت المناسب وفي اللحظة الحاسمة. ثم بالنسبة إليّ أعدك أنني لن آخذ من وقته الكثير فسوف أقوم بمهمتي في بضع دقائق، إذا كان مشغولا إلى هذه الدرجة. فأنا أيضا ورائي أرواح أخرى.

– ماذا تقول؟

– أقصد ورائي أعمال أخرى...

– ألا يمكن أن تؤجل مهمتك هذه؟

– لا! مستحيل المهمة خطيرة ومؤقتة بدقة لا تحتمل أي تأخير... يجب أن تتم اليوم وإلا اختل نظام الكون.

– ألا نستطيع أن نبلغها عنك؟

– سيدتي أرجوك! لا أريد من يتدخل في شغلي فلسنا في مجال مزاحمة! أعلمك أني قد رشحت لهذه الوظيفة منذ بداية الخليقة وسأواصلها مدى الحياة ولن يستطيع أحد أن يزحزحني عن منصبي... ليست الأمور بهذه البساطة، كما أعلمك أنه رغم تعييني من قبل السلطات العليا إلا أنني أحظى بشعبية لا مثيل لها، كل ذلك من أجل تفانيَ وإخلاصي في عملي.

«إذا كنت ستلقى عليّ محاضرات فأخبرك أنني أعيش في تخمة... عن أذنك!».

أغلقت بابها ودخلت.

كان عزرائيل يعرف قرية «عمر الخالد» وبيته فاتجه إليه مباشرة... تسلل إلى غرفته دون أن يراه أحد.

كان الكاتب غارقا بين أوراقه فلم يشعر بدخوله! تحيط به مكتبة عالية كلها مجلدات مغبّرة وداكنة اللون تبعث على الرهبة.

وقف عزرائيل في العتبة يتأمله:

– «لن تفلت مني هذه المرّة، ولن تشفع لك شهرتك واسمك وكتبك و... سأميتك هنا في هذا الخراب وفي هذه القرية النائية البائسة ميتة الكلاب فلن يراك أحد... إنك لم ترني ولم تتذكرني طوال حياتك... انشغلت بكتبك وأغواك المجد وأعمتك الشهرة... ها قد حانت ساعتك... لئن أفلت مني فيما مضى ونجوت بأعجوبة في كل مرة حاولت فيها القضاء عليك... فإن هذه المرة هي القاضية... لن أرحمك... الآن سوف تعرف أنني الأقوى. لن تتفوق عليّ بشهرتك... بل أنا أشهر منك من لا يعرف عزرائيل؟ من لا يخافه؟ ومن لا يحسب له ألف حساب؟ أما أنت فأين جمهورك وقراؤك ها أنت وجها لوجه مع الموت! لا تظن أنك أفلت مني في المرات السابقة لأنك الأقوى فأنا الذي أمهلتك وطمّعتك بالحياة والشهرة لتكون الجولة الأخيرة لي، إني أرتب لك هذه الميتة منذ أيام الدراسة، منذ بدأت تتفوق، تتعالى وتكبر، حتى لم تعد تعرفنا والآن دعني اختار لك الميتة التي تناسبك... هل أقتلك مثلما قتلت الجاحظ مردوما

تحت أكوام كتبه.. أم أخمد أنفاسك على مكتبك فتموت شهيد القلم والأوراق.

لا لن أمنحك هذا الشرف سأميتك بعيدا عن عالمك الذي أفنيت عمرك من أجدله ستموت كأي مواطن عادي مغمورا بعيدا عن الأضواء و... فجأة رفع الكاتب رأسه:

- «من أنت؟ وماذا تفعل هنا؟».

- أنا عزرائيل؟

- نعم...؟

فتح الكاتب عينيه جيدا، تأمله طويلا بصمت... ثم قام عن مكتبه بثقة وأناة واتجه نحوه.

- «أنت عزرائيل إذا! طيّب! أهلا وسهلا بك. أظن أنك أتيت من أجل الإطلاع على ما كتبته عنك. لا بد أنّك قد عرفت بذلك»...

- «ماذا؟»

- «ألا تعلم أنني بصدد كتابة رواية أنت بطلها «عزرائيل» ما رأيك؟ ولكنني لم أكملها... وها أنك تأتي في وقت غير مناسب وتعمل لغير صالحك... إني استغرب أمرك إنك تضيع فرصة ذهبية... في حين أني أريد أن أخلدك وأدخلك التاريخ من بابه الواسع... وإن

كنت مصرا على قبض روحي... فلك ذلك ولكن أعلم أنك أنت الذي ستخسر في النهاية.

– «غير معقول! إن الأقدار تخبئ لي مفاجآت خارقة (مخاطبا نفسه) هل يمكن أن اطلع على هذه الرواية؟».

– «ممكن جدا بما أنها تتعلق بك. وأنا يسرني أن يتعدد ويتنوع قرائي... ولكن بما أنك صرت هنا فاسمح لي بأن استغل وجودك لأسألك عن بعض الجزئيات والتفاصيل التي يمكن أن تساعدني في تصوير شخصيتك بأمانة ودقة أكثر... تعال يا أخي... تفضل إلى غرفة الجلوس لماذا أنت واقف هكذا منتصبا عند رأسي... أنا أقدر موقفك وسأسهل لك مهمتك... ولكن تعالى نجلس قليلا... لأتعرف على شخصك أكثر... فأنت شخصية مهمة وقد آليت على نفسي ألا أموت قبل أن أخلدك...

ماذا يشرب السيد «عزرائيل»؟

أتحب المشروبات الروحية؟

ـ «لا شكرا! هذه المشروبات لنا منها سواق وأنهار في العالم الآخر... لا أريد شيئا فإني مستعجل. لي شخصيات أخرى هامة... لا أستطيع أن أعهد بها إلى أعواني...

ـ «لا لابدّ أن تشرب شيئا... خذ الرواية إبدأ بقراءتها... حتى أعود إليك بشيء تشربه».

لما عاد «عمر الخالد» كان «عزرائيل» قد غرق في تفاصيل الرواية ونسي أمره.

كتبت في: «باردو»
انتهت الواحدة إلا عشر ليلا.
9 سبتمبر 1989

«التحيّـــة»

أفاق السّيد إبراهيم هذا الصباح فزعا يرتعد:

«هل تأخرت عن عملي؟»

نظر إلى ساعته:

«غير معقول حتى الساعة توقفت... إن النهار قد طلع في الخارج، يجب أن أطير إلى عملي طيرانا، لن أعطيه فرصة أخرى، ذلك «النذل» كي يسوّد ملفي أكثر..

ثلاثون سنة لم أتأخر فيها ولو دقيقة واحدة عن المؤسسة، أصل أول الموظفين وأخرج آخرهم.. وهو يعرف ذلك جيّدا... والمدير العام يعرف ذلك أيضا وإلا كيف ردّ عليّ التحّية يوم اعترضته في الدرج... نعم لم أصدق في البداية أن الرئيس المدير العام يرد علي التحية، إنه لم يفعلها مع أحد من الموظفين منذ سنوات لا شك أنه يعرف ملفي الأبيض الناصع جيدا. تحيته ليست مجانية ولا يمكن إلا أن تكون إشارة واضحة إلى عزمه على تعييني في منصب رئيس قسم الموظفين الذي أحلم به طوال حياتي..

وإلا فما معناها؟ وهل يمكن أن يكون لها معنى آخر؟

أنا واثق أن الرئيس المدير العام لم يحييني ذلك اليوم إلا بعدما درس الأمر جيدا وعرف أنني سأكون الرجل المناسب في المكان المناسب. وذلك النذل يعرف طموحاتي أيضا ويعرف أنه لا يستحق منصبه لأنني منضبط أكثر منه لذلك عمل على عرقلتي فلم يجد ثغرة في حصني الحصين حتى جاء ذلك اليوم الذي اصطحبت فيه ابني إلى مدرسته لأمر ضروري جدا.

ورغم أنني لم أتغيب سوى ساعتين و10 دقائق و30 ثانية فقد استغل «النذل» الفرصة ووجه لي توبيخا رسميا، ورغم أنني شرحت له الأمر فقد أصر على موقفه وأفهمني أنه يقوم بواجبه وإن ألححت أكثر فسيوجه لي إنذارا يرفعه إلى الرئيس المدير العام.

ولكن كيف وصلته الأخبار بهذه السرعة؟ ومن نقل له نيّة المدير بترقيتي؟ لا شك أن أحد أتباع «النذل» رأى المدير يحييني!... كلهم يتجسسون عليّ. ومادام الأمر قد وصل إلى حد التوبيخ والتهديد بالإنذارات لا بد أن ترقيتي أصبحت مؤكدة لذلك أراد «النذل» نسفها المهم ألا أتأخر اليوم يجب أن أسرع.

نادى زوجته كي تعجّل له بالقهوة فلم تجبه. توتر... التفت نحوها ليخضها ظنها نائمة.. فإذا هي صاحية.. أعاد عليها طلب القهوة فلم ترد عليه.. اشتد غضبه، يبدو أنها لا تعبأ بكلامه ولا تهتم به لكنها قامت بعد برهة، دخلت المطبخ أحضرت القهوة ورجعت بها، وضعتها على «الكمود» على عادتها ووقفت أمامه:

ـ «إلى متى ستظل نائما اليوم؟ أنسيت توبيخ البارحة؟ قم يا رجل وأقصد باب الله».

ثم تركته وخرجت..

ـ ماذا دهاها المرأة اليوم؟ هل أصيبت في عقلها أم أنها تريد أن تفقدني صوابي؟ إني لست متفرغا لها الآن، سأهتم بأمرها عندما أعود من الشغل المهم أن أخرج بسرعة:

لا يعرف كيف تناول الفنجان؟ القهوة خالية من كل طعم أو رائحة، رغم بخارها المتصاعد. لا يدري كيف لبس ثيابه وصار بالشارع... تذكر أنه لم يغسل وجهه.. هل شرب القهوة؟

عندما مرّ بدكان العم «قدور» حيّاه فلم يرد عليه التحية...

واصل مسرعا حتى خرج إلى الشارع الرئيسي: «شارع 20 مارس» وقف بمحطة الحافلات «بباب سعدون» رأى بعض الوجوه التي يعرفها حياها... فلم يرد عليه أحد..

ـ «ماذا يحدث اليوم؟»

فجأة قدمت الحافلة الصفراء تزحف مائلة جهة الرصيف لكثر حملها..

ـ «يبدو أنه لن يفتح الباب.. سنرتاح عما قريب من الحافلة وزحماها. ثلاثون سنة وأنا أركبها يوميا وأحلم بسيارة رئيس المصلحة. إن ذلك لشيء معذب أشد من عذاب الحافلة لقد كرهت حياتي

قبل ذلك اليوم الأغر يوم «التحية» ولكني لم أشعر أنني متعلق بها متلهف عليها مثلما هو حالي الآن ...».

توقفت الحافلة، فتح الباب رغم اكتظاظها، تدافع الناس... وقعت امرأة بين الأرجل، لم يرفعها أحد مخافة أن تذهب الحافلة...

احتار كيف سيصعد لقد تأخر كثيرا... انقبض... تذكر التوبيخ.. لم يدر كيف صار فجأة وسط الحافلة واخترق ذلك الزحام كأنه شبح ولا كيف نزل بعد ذلك بمحطة نهج روما قرب مؤسسته... لما دخل وجد الحاجب يقرأ الجرائد بمكتب الاستقبال.

ـ «صباح الخير.. ما هي الأخبار اليوم؟»

لم يرفع الحاجب عينيه عن الجريدة..

ـ «غريب! حتى الحاجب! لقد اشتراه النذل. هل ينتظر مني رشوة كي يرد السلام!».

في الدرج وفي الأروقة.. لا أحد من الزملاء ينتبه له. ولا يشعر بوجوده ولا يردّ تحيته. كاد يفقد صوابه.

ـ «أوصل به الأمر إلى حد تأليب جميع زملائي عليّ بين عشية وضحاها».

اشتد غضبه. دخل مكتبه. احتل مقعده... وبقي يفكر في الأمر..

كان في منتهى الحنق والحيرة والخوف... فجأة رن التليفون..

ـ «ألو هل السيد إبراهيم التركي موجود؟»

– «نعم أنا نفسي تفضل!»

– «ألو هل السيد إبراهيم التركي موجود؟»

– «نعم تفضل قلت لك أنا نفسي!»

– «ألو هل السيد إبراهيم التركي موجود؟»

– «نعم موجود ألا تسمع؟»

مرت برهة انقطع الخط بعدها... وضع السماعة..

– ماذا يحدث اليوم؟

أخذ يعيد الشريط من بدايته منذ قام في الصباح تذكر أنه نادى زوجته فلم تجبه لكنها خاطبته فيما بعد كأنه لم ينادها.. القهوة؟ لا يذكر أنه شربها... العم قدور... الناس في المحطة.. الحافلة.. الحاجب.. الزملاء.. ثيابه كيف لبسها؟ لا يتذكر أنه فتح خزانته واختارها بنفسه كما يفعل كل يوم.. نظر إلى نفسه.. أين ثيابه؟ بل أين نفسه؟.. جال ببصره في المكتب أين هو؟ كرسيه شاغر.. لا يوجد أحد بالمكتب.. طار إلى بيته.

بالباب سمع عويلا.. عندما دخل وجد زوجته وأولاده ملتفين حول سريره ينشجون بالبكاء.

كان جثمان «إبراهيم التركي» بينهم مسجّى.

كتبت في: «باردو» سبتمبر 1989

«إعـــــلان زواج»

« تونسي يبلغ من العمر 39 سنة، رجل أعمال حسن الأخلاق والسمعة، أبيض البشرة، يريد التعرف قصد الزواج على فتاة: جميلة الوجه، طويلة القامة، متوسطة الثقافة، صغيرة السن (25 سنة أقصى تقدير) مخلصة، تقدس الحياة الزوجية، تحسن القيام بشؤون المنزل والاستقبالات، تقبل الإقامة معه في مكان عمله لا يهم إن كانت أرملة أو مطلقة».

ظلّت المجلة بين يدي «زهرة» فترة طويلة وهي تقرأ الإعلان وتعيد وتردد في شبه هذيان.

ـ «رجل أعمال... رجل أعمال كبير... هذا هو الرجل الذي أبحث عنه... وهذه فرصة العمر التي يجب ألا أضيّعها...».

ثم سرحت فالتمع الربيع في عينيها مقتحما فصل السحب السوداء والحياة الداكنة... طاردا شبح البؤس والحرمان اللذين عانت منهما طيلة حياتها مع زوجها السابق ومع أبويها من قبله...

عاودها حلمها وتوقها إلى معاطف الفرو وقفازات الحرير... والذهب والألماس... وعطور أف سان لوران... وأزياء بيار كردان...

ظلت زهرة تعيد النظر في الإعلان وتعيد النظر في نفسها.

ـ «الحمد لله أنني لم أتجاوز الخامسة والعشرين وأنني أنقذت شبابي من ذلك «الفاشل» قبل فوات الأوان وقبل أن يزهد فيّ «رجال الأعمال»..

«رجال الأعمال» لا يحبّون إلا النساء الشابات كأنهم يريدون جمع المال والشباب والشهرة في قبضة واحدة... معهم حق يجب أن أنقذ شبابي من الفقر أنا أيضا وأتمتع بحياتي خاصة إذا كنت «جميلة» «طويلة القامة» كما يريدني «رجل الأعمال».

تماما...

ثم اتجهت نحو المرآة متحسرة:

ـ «كل هذا الجمال والقوام كان مهدورا مع ذلك «البائس» الذي لا يقدر شيئا من محاسني... سيعطيه «رجل الأعمال» درسا في تقييم الجمال عندما يقدّم مهري مثقال وزني ذهبا وفضة بل ذهبا وجوهرا... سأدعوه إلى حفل الزفاف حتى يشهد ذلك بل إن الإعلان ليعدّ درسا في حدّ ذاته، لقد حسم رجل الأعمال الأمر وفهم اللعبة عندما اشترط: «امرأة طويلة القامة متوسطة الثقافة» فالثقافة ليست سوى شقيقة البؤس والحرمان، الحمد لله أن لم تدركني هذه المحنة، يكفيني ما عانيت بسببها عندما تزوجت ذلك المعلم وضيّعت معه خمس سنوات من عمري بعثرني فيها من ريف إلى

ريف... تزوجته أملا أن يصبح أستاذا لعلّ راتبه يرتفع ثم علمت فيما بعد أن وضع الأستاذ لا يختلف كثيرا عن وضع المعلم بالنسبة إلى من يتقاضون أضعاف رواتبهم في صفقة واحدة هؤلاء ممن امتهنوا المشاريع الحرة وسحرهم ربحها وفهموا سرّ النجاح في الحياة... بعدما غادروا مقاعد الدراسة مبكرا...

لعلّه يخاف أن أكون «معلّمة» أنا أيضا أسهر مع أكوام الدفاتر، محنية الظهر، مرهقة الوجه، كما أصبحت حال زميلاتي ممن واصلن دراستهن كالدّواب يتآكلن ببطء وينقرضن في صمت بسبب داء ما يسمّى بـ«محنة الثقاة» عافانا وعافاكم الله... لا! اطمئن يا أخي فانا معدومة الثقافة تماما...

حفظ الله «رجال الأعمال» وأيامهم ولياليهم وسهراتهم وحفلاتهم واستقبالاتهم من هذه «المحنة» فأنا لم أفارق حياة البؤس إلا من أجل هذه الليالي الساحرة...

لقد ازدادت «زهرة» اقتناعا بموقفها عندما نفضت يديها من الزوج المعلّم المعتصم بالأرياف خوفا من المدن وغلاء معيشتها... بعدما تأكدت أنه لن يستطيع توفير رفاهية أيامها وتأمين شبابها عند دور التجميل ودور الأزياء واصطحابها إلى مدن العالم الصاخبة...

إنه لا يستطيع أن يوفر لها غير الشمس الحارقة أيام الصيف تسوّد جلدها والرياح والبرد أيام الشتاء تجفف بشرتها وتبتعد بها عن عوالم النعومة والرفاهة وتشعرها أكثر فأكثر بهدر شبابها وضياع نضارتها بين أقفار الريف النائية...

لقد ضاقت زهرة بجلدها وببؤسها الذي عشّش فيه كالدود مدّة خمس سنوات ينخره نخرا لم تعد تحتمله، حتى كانت تلك الليلة التي هبّت فيها من فراشها كمن مسّه هوس الثراء فجأة وأراد أن يقطع أوصال الفقر بأحدِ سكين، صرخت في وجه زوجها تلك الليلة:

- «لن أتحمّل فقرك بعد اليوم...؟ يكفي ما قاسيت معك... حتى نفيت وحرمت من أجلك. أنت إنسان فاشل ... كم توسطت لك كي تصبح «رجلا»؟ وكم فعلت من أجل إدخالك عالم رجال الأعمال الحرة والمشاريع المربحة، الممطرة ذهبا؟... لكنّك خائف متشبث بوظيفتك متعلق به كما كنت ولا تزال متعلقا بفستان أمك... كم زيّنت لك حياة الرفاهية والنعيم والمال الوفير ولكم لفتُ انتباهك إلى المشاريع التي تقام هنا، حولنا في الريف: من مداجن وتربية أبقار... وأغنام... لكنك تعشق حياة البؤس والفقر....

ـ «يا امرأة أعقلي! أنا معلم مالي وتربية الأبقار والأغنام والدواجن...

ألا تعلمي ما قاله شوقي في المعلم؟

ـ «ماذا قال؟»

ـ «قال كاد المعلم أن يكون رسولا؟»...

ـ «رسول؟ الرسول كان تاجرا ولم يكن معلّما... أمّا أنت فستظل معلّما وتموت معلّما... مجرد معلم هل أنت أحسن من «فرج» ابن خالتي الذي تخلّى عن وظيفته واشغل سائق تاكسي ثم

سرعان ما أصبحت له سيارته الخاصة وهو يدير الآن أكبر شركة سيارات أجرة تعمل في مختلف ولايات الجمهورية، ليتني تزوجت ابن خالتي!... لكني لم أكن أعرف أنه سينقلب إلى هذه الحال!... إنه الحظ الأعمى الذي لا يعرف كيف يقسّم الأرزاق! هل زوجته أحسن مني؟... تلك «الفحمة السوداء» التي أصبحت صفراء من فرط ما أغرقها ذهبا... إنك تكاد لا تعرفها من فرط الثراء الذي أصبحت عليه... بل قل إنها لم تعد تريد أن تتعرّف علينا بعدما انتقلت إلى «قصر سكره» بعد ذلك البيت الحقير الذي كانت تسكنه بحي «الملاسين».

ـ «حقا إنك لامرأة ساذجة! هل تعتقدين أنه أثرى هذا الثراء الفاحش وانقلبت حاله بين عشية وضحاها بفضل سيارات الأجرة؟... لو تعرفين ما يهرّب في هذه السيارات داخل البلاد وخارجها لأنكرت أنت التعرّف عليه!»

ـ «تلك إشاعات! يروّجها حسّاده وأعداؤه وما ذلك سوى منطق الفقر والحرمان يتكلم على لسانك... أنا لا يهمّني كل ذلك!... المهم زوجته!... ماذا تلبس؟... كيف تعيش؟ ما تقتني من ذهب وجواهر...؟ ذلك منطق العصر... وذلك ما يراه الناس وما يقيّموننا به... ولنفترض أن ما تقوله صحيح فإن أحدا لن يتجرأ على المجاهرة بذلك أمام رهبة ثرائهم وقوتهم ومكانتهم...».

ـ «أنا أستطيع أن أواجههم بذلك وأمامك!»

تصفق زهرة:

ـ «برافو إنك فعلا لبطل! شجاع وهمام! إيه وبعد ذلك؟ ستعيد هذه القصة على تلاميذك وتحكيها لدراويش القرية... ليلتف كل فقرائها ومحروميها حولك... وتصبح أسطورة!... ماذا استفدت أنا؟... أنني متزوجة من عنترة بن شدّاد؟... ما أتسعني وما أتعس حظي الذي بلاني برجل فاشل مثلك...».

ـ «أنا لست فاشلا كما تعتقدين أنا الذي اخترت أن أكون معلما واخترت وجوه الأطفال الأبرياء... واخترت الريف... وأشياء أخرى لا تفهمينها ...»

تضرب زهرة كفّا بكف وتفتح فاها وقد جفّ حلقها:

ـ «أنت الذي اخترت إذا؟... آه ما أشدَ مصيبتي! لو قلت أنه قضاء وقدر لهان الأمر... لكنه اختيارك يعني أنك اخترت الفقر والبؤس طول حياتك... الآن نفضت يديّ منك!... لم يعد هناك ما أنتظره منك!... اذهب إلى أطفالك الأبرياء... الآن فهمت لماذا كلّما عرضت عليك مشروعا وحاولت أن أوفر لك رأس ماله رفضت...

ـ «أنا لا أدخل في مشاريع فردية لا أعرف مصدر تمويلها... ولا أصرف مليما إلا إذا كان من عرق جبيني...

ـ «أتشكك بشرفي أيها الفاشل؟ طلقني إن كنت رجلا! طلقني...».

لم تكن «زهرة» تهدّده أو تنغص عليه حياته ككل مرة فبعد بضعة أشهر تمّ الطلاق...

****

تركت «زهرة» الريف ورجعت إلى المدينة تزيح عن عينيها دخان الأيام الظلماء وتعد النفس بأجمل أيام العمر التي لم ترها...

وبدأت رحلة البحث عن «السبع» الذي سيقدم لها الدنيا لقمة سائغة... كانت المدينة تعبث بشهواتها ورغباتها، تزيّنها لها حينا وتطمّعها بها حينا آخر... وتحبطها في كثير من الأحيان... فيلتهب جنون البحث داخلها وينهض خوفها ورعبها على شبابها جلاّدا سيقصف عمرها دون مبالاة «بجمالها» أو «بقوامها» ولكنها كانت تركل كل تلك الأعوام وراءها وتعزّي النفس قائلة:

ـ «من الأفضل أن يخسر الإنسان بعض سنوات من عمره على أن يخسر العمر كلّه!

مازلت شابة وجميلة، نظرة وذكية أعرف كيف الوصول إلى قلوب الرجال «الرجال» لا أشباه الرجال...

يقع بصر «زهرة» مرة أخرى على المجلة كأنما يقع على كنز... أو كأن باب العرش انفتح فجأة أمامها وقد كتبت عليه جملة «رجل الأعمال» بأحرف من نور ... تتلألأ أمام عينيها تلألؤا يملأها فرحا

وتفاؤلا... ويضيء طريقا ظنت في كثير من الأوقات أنها انسدّت أمامها... تمتد الطريق أمامها فسيحة معبّدة، بقي على «زهرة» أن تعرف كيف تقيس خطواتها فحسب مستفيدة من كل العثرات السابقة...

تذكرت «زهرة» تجاربها السابقة... وتذكرت «البشير» الذي عرّفتها به «وردة» جارتهم «بحي التضامن» «وردة» التي كانت تستعين «زهرة» على شغل البيت وحراسة الأطفال أثناء غيابها واعدة إياها بابن الحلال الذي لن يأتي إلا على يديها... فكم توسطت وردة «لبنات وأبناء الحلال» مستغلة معارف زوجها الكثيرة وخاصة منهم أصحابه في المهجر وترددهم الدائم على بيتها الذي يكاد لا يخلو من الزوار أبدا... وهي لا تريد أن تسدّ أبواب السعد في وجه أحد... ولا ترجو من وراء ذلك جزاء ولا شكورا فثوابها عند الله. أما العبد فهو كفور جحود بنعمة ربه «يأكل الغلّة ويسبّ الملّة» كما تتعمّد أن تسمع بعض جاراتها...

وفي يوم من الأيام دقّت «وردة» «باب دار» «عم مهدي» ونادت «زهرة» وهمست لها من العتبة.

ـ «الليلة عندنا ضيوف قادمون من إيطاليا أصحاب «عمك رجب» دعاهم إلى العشاء... قولي لأمك أنك ستساعدينني في الطبخ وتعالي...».

في المطبخ أسرت لها أن أحد الضيوف واسمه «البشير» جاء من أجل أن يتزوج ويعود بعروسه إلى إيطاليا في ظرف أسبوع... لقد ملّ

حياة الغربة والعزوبية... «يحب يستحسن»... وبما أن الوقت قصير فقد طلب منّا أن نساعده فقلت في نفسي «الماء اللّي ماشي للسدره الزيتونة أولى به!.....».

في السهرة وأثناء العشاء أبدى «البشير» وهو شاب أسمر ووسيم اهتماما متزايدا «زهرة» حتى أن بعض أصحابه مازحه قائلا:

ـ «هنيئا لك يا أخي لقد وجدتها في ليلة بينما نحن نقضي العمر كلّه في البحث عنها دون جدوى!».

لم يبد على البشير أي حرج بل اغتنم استفزاز صديقه ليعلن أمام الجميع خطبته «لزهرة « وليطلب من «وردة» أن تذهب من الغد وتخطبها من أهلها بما أنه يتيم ووحيد.

كادت «زهرة» تجن من الفرحة وكذلك أهلها الذين لم يترددوا في الموافقة على هذا الزواج «البرقي»

قالت زهرة لبنات جيرانها.

ـ «هل تأكدتن الآن أنني لم أخلق للرّيف وأن نجمة السعد قد نادتني من إيطاليا...».

فمازحتها إحداهن قائلة:

ـ «ادعي ربك ألا ينفيك هو الآخر في إحدى قرى إيطاليا... فليس كلّ المهاجرين يسكنون «روما» و«ميلانو» «ونابلي» كما يدّعون دائما...».

أجابت زهرة:

ـ «حتى لو كان الأمر كذلك فأنا أفضل أية قرية في العالم على «سيدي حسين» تلك القرية التي دفنت فيها أجمل أيام شبابي...».

تصوري أننا عشنا خمس سنوات دون كهرباء أما الماء فمازال الناس هناك يستجلبونه بواسطة «القرباجي» (السقّاء) لحدّ الآن...

يوم الخطبة أهدى «البشير» إلى «زهرة» خاتما وسوارا من الذهب قال إنه استجلبهما معه من إيطاليا...

بعد ذلك ظلّ يأخذها كل ليلة معه للسهر خارج البيت في فنادق عديدة بنابل والحمامات وسوسة...

عندها اكتشفت «زهرة» عالم الفنادق والسهر والديسكو... واكتشفت أيضا أن «البشير» يسكر حتى الثمالة ويعربد ولا يتورع عن مغازلة النساء أمامها... وهناك اكتشفت أيضا «خطيباته» الأخريات...

أما في بيت «وردة» فقد اكتشفت زوجته الحقيقية، ابنة عمّه التي جاءت من أقصى الجنوب تبحث عنه...

لم تكن زوجته تعبأ بقصة نزواته وعربدته مع النساء الأخريات بقدر ما كانت مهمومة بقضية الصرف على أولاده السبعة الذين تركهم في عهدتها دون إعالة... كانت تتوسّل «وردة» أن تتوسط لديها عنده وترقق قلبه على أولاده وتذكره بهم بعدما يئست من ملاحقته عبر

المحاكم... وعجزت عن تسديد نفقات الشكاوي والمحامين والعدول المنفذين التي تحتاج إلى ميزانية خاصة تفوق «النفقة» التي تطالبه بها والتي يتحايل في عدم تسديدها ويتحجج بالبطالة...

ابتعدت زهرة عن «البشير» بعدما أقسمت أنها ستنتقم منه يوما ومن كل الرجال لكنها اليوم والمجلة أمامها لا تفكر في الانتقام بقدر ما تفكر في التعويض عن الحرمان إنها في الحقيقة مشغولة الآن بقضية «لقاء رجل الأعمال» الذي تعتبره أكثر من مجرد موعد للتعارف إنه رهان خطير لا بد من الفوز به في سباق الألف امرأة وامرأة... وهو عناد كبير مع القدر الأحمق الذي لا يعرف كيف يقسّم الأرزاق...

كانت تردّد بتحدّ.

ـ «يجب أن أكون أنا الأجمل... والأقدر على سحره... ثم أردفت بتوتر:

ـ «ومع ذلك أشعر ببعض الحيرة والارتباك... إني في حاجة لمن يساعدني.. بل إني في حاجة إلى زيارة صديقتي وفاء.

تخلصت «وفاء» من حقائب السفر بمجرد دخولها بيتها الذي غادرته منذ أسبوع... اتجهت مسرعة إلى غرفة نومها وألقت بنفسها على فراشها وقد اشتاقت إلى دفئه... أما نبيل فقد اتجه مباشرة إلى غرفة الحمام ملأ الحوض ماء فاترا وأسلم الجسم إلى دفئه... فها هي مدينة اسطنبول تقتحمها من جديد وتلاحقها حتى بلدها... حتى بيتها... وهي تبدو سعيدة بذلك منتشية... لا تكاد تغمض

جفنيها حتى تزدحم الصور مشوشة ملونة... متداخلة... زاهية... ساحرة... أمام عينيها... تحاول أن ترتبها... «التوب كابي» جامع السلطان عبد الحميد... البوسوفور... جسر كمال أتاتورك المراكب التي تروح وتجيء بين ضفتي النهر: هذا الرواق المائي الذي يفصل بين الشرق والغرب أو يصل ما بينهما وتركيا الحائرة بينهما... القوارب التي تحمل الركاب على بساط الماء الأزرق... متمايلة مع تعرجات الموج... المطاعم التي تحف بالنهر، تكاد تنزلق في مياهه... رائحة السمك المشوي الخارج لتوّه من البحر فوق جمر عربات الباعة... الحمائم المعششة في البنايات... المنتشرة فوق الأرصفة... وهما يرميان لها الحب... ويد حبيبها التي لم تفارق خصرها طوال نزهاتهما... كانت هذه الصور تتراقص أمام عينيها على صوت خرير «الدش» الذي ينسكب على ذاكرة نبيل فينعشها ويحيي ذكريات مازالت طريّة نظرة... تقتحمه هو أيضا... تأخذه من يده وتعود به راكضة إلى حيث كانا وحيث قضيّا أجمل أيام العمر معا..

في هذا الجو الطافح بالذكريات يرن جرس الباب فجأة.

يعتري «وفاء» استغراب... أما نبيل فلا يبدو عليه أنه قد سمع شيئا... تفتح الباب تفاجأ بزهرة.

– أهلا «زهرة» كيف عرفت أننا عدنا ؟ لقد اشتقت إليك.. تفضلي... أنت محظوظة، لأننا لم نصل إلا منذ عشر دقائق فقط... كيف حالك؟...

– « إني بحاجة إليك... لدي مشروع هام أريد أن آخذ رأيك فيه....».

– «خير إن شاء الله!...».

– «قبل ذلك ماذا جلبت معك من تركيا؟... هل أتيت بالذهب والجواهر؟...».

تضحك وفاء

– «الذهب والجواهر؟ صدقيني أنني لم أفكر في ذلك...».

– «رغم أنني أوصيتك قبل الذهاب وألححت عليك... ألا تعرفين أن أية قطعة الماس من تركيا لتساوي أضعاف ثمنها هنا...؟»

– « الماس؟... تعالي... تعالي اجلسي... فعلا إن لدي أشياء تساوي الألماس سأريك إياها...

تفتح «وفاء» حقيبة السفر وتخرج منها ألبوم صور.

– «أنظري هذه القبة العظيمة والمآذن المحيطة بها كالحراس... إنه جامع السلطان عبد الحميد. تركيا بلاد كلها مآذن، قباب وجوامع... لا تشعرين فيها بالغربة أبدا إنها امتداد لحضارتنا... انظري الحمام يحطّ فوق أكتافنا... أرأيت نبيل كم هو سعيد؟...».

– «نعم ولاحظت كم أنت متألقة أيضا... دعيني أقول لك بالمناسبة أنك ازددت جمالا ونضارة في هذه الرحلة...».

– «فعلا! لقد استمتعت بها أكثر من أية رحلة أخرى فالسفر مع رجل نحبه له طعم آخر... أنظري هذه الصورة إنها...

تقاطعها زهرة

– «جميلة جدا. اتركيها لما بعد... سنتفرج عليها في مناسبة أخرى... الآن اسمعيني جيدا.. لقد أتيتك من أجل مشروع هام...».

– «آه مشروع ذهب وجواهر... قلت لك مائة مرة يا زهرة أن ليس لي باع في هذه المشاريع...».

– «لا اطمئني إنه لا يخصك أنه يتعلق بي... وإن شاء الله يأتينا من ورائه ذهب وجواهر كثيرة ...».

– «ما هو هذا المشروع؟ لقد أثرت حيرتي...».

– «إنه مشروع زواج».

– آه... يبدو أنك تعرفت على رجل «ثريّ» بعد سفري.

– بل «وقعت» على رجل مهم... سيغيّر كل حياتي

– «هل اتفقتما؟...».

– إننا لم نتفق بعد ولم أتعرف عليه... جئت...

تقاطعها وفاء

– «إنها خطبة تقليدية إذا؟... رجل بعث أمه لأنه فشل في إقامة علاقة مباشرة مع امرأة».

– «بالعكس إنها ليست خطبة تقليدية، إنها خطبة عصرية جدا... المشكل إنه لم يطلبني بصفة خاصة... لقد كتب إعلانا في المجلة... ضمّنه شروطه... أخاف أن تسبقني إليه أخرى أو أخريات... من يدري؟ الرجل مهم جدا إنه رجل أعمال... لذلك يجب أن أسرع. الحقيقة أني محتارة لا أدري كيف أتصرف وسط هذا السباق الخطير.

– «أرني الإعلان لأتعرف على صاحب الحظ السعيد الذي جعلك في حيرة من أمرك».

– «خذي المجلة أقرئي..».

تلقي وفاء على الإعلان نظرة فاحصة ترفع رأسها نحو زهرة:

– «قد قرأت النداء» يا نساء العالم تزوجنني!

– «لا تمزحي فالأمر جد هام بالنسبة لي... إنه مشروع العمر إنه رجل أعمال ألا تفهمي؟...

– «أخاف أن يكون هو الذي يمزح...».

– «لا أظن... ليس في الأمر ما يدل على المزح إن شروطه جديّة...».

– «طيّب! إذا كنت مقتنعة إلى هذه الدرجة ردي عليه وعبري له عن رغبتك في الزواج منه وحظا سعيدا....».

– «ليس الأمر بهذه البساطة... إنه سباق كبير...»

تضحك وفاء.

– «فعلا إنه سباق كبير و«خطير»... كرنفال مثير أو مهرجان من العارضات المتسابقات الطريف فيه ان لا واحدة ترى الأخرى...».

– «إني أراهن على اللقاء الأول.... أريد أن أدخل السباق بقوّة.... وقد ضمنت الفوز به... الأمر كله يتوقف على الموعد الأول... يجب أن أكون في أتمّ زينتي... وفي أحلى مظهري... في أفخم فستان... وفي أجمل تسريحة...».

لكن يضايقني أن نلتقي في الشارع هل تسمحين أن نلتقي عندك؟...

تستقيم وفاء في جلستها وتواجه زهرة:

– «من أدراك أن هذا الرجل لا يريد التسلّي بالنساء... أنا أستغرب لجوء رجال الأعمال إلى مثل هذه الأساليب في الزواج... الذي أعرفه عنهم أنهم كثيري العلاقات لا تنقصهم المناسبات أو الفرص للتعارف والالتقاء بالنساء...».

– «ولما لا تقولين أنه رجل أعمال مشغول جدا ليس له الوقت لاختيار شريكة حياته؟...».

– «لقد قذف لكن بكرة وترككن تتراكضن حولها... هل نحن في ملعب؟».

– «نعم الدنيا ملعب كبير... وإذا لم نحسن اللعب ركلتنا الأرجل...

صدقيني يا وفاء لقد تعبت ومللت حياتي.. أنت تعرفين أن ليس لي مورد رزق أعيش منه».

– «لماذا لا تشتغلين؟... أنا مستعدة أن أساعدك وأبحث معك عن شغل».

– «إيه ماذا سأشتغل؟ ليست لي شهادات ولا خبرة ثم حتى لو اشتغلت طوال عمري لن أصل إلى تحقيق ثروة رجال الأعمال... تصوري لو تقدمت بطلب لأبسط شغل لطلبوا منّي أعلى الشهادات وأرقى الكفاءات... مع خبرة عشر سنوات... من أين لي كل ذلك؟... كل الخبرة التي اكتسبتها تتمثل في ذلك الزواج السابق الذي لم أجن منه سوى تلك الوصمة التي تلاحقني ... وتقفز كالعاهة إلى وجهي كلما تقدم أحد إلى خطبتي.. فها أنا أقع على الرجل الوحيد الذي أغمض عينيه عن عاهتي... ألم تقرئي شروطه؟...

تلتقط المجلة مرة أخرى وتناولها إياها مشيرة إلى الجملة الأخيرة... هل تريدينني أن أفرط في هذه الفرصة... وأن أتوسل بقية الرجال حتى يتغاضوا عن هذه اللعنة التي تلاحقني...

تمسك وفاء المجلة... وتواصل القراءة:

«امرأة طويلة القامة متوسطة الثقافة فتنزعج».

«ما هذه الشروط؟».

تنطق زهرة:

– «لقد أعفاني من الشهادات وأشفق عل شبابي من الإرهاق والتعب... بارك الله فيه...».

– ثم تقف متجهة نحو مرآة أمامها في غنج ودلال.

– «لماذا أتعب نفسي مادام الحسن والجمال والقوام متوفرون والحمد لله...؟».

تنظر إليها وفاء وتنظر إلى الشروط... وقد فقدت صبرها..

– مادامت هذه شروطه.. فدعيني أصارحك برأيي: صاحب الإعلان هذا سيمتص شبابك ثم يرميك بعدما تنضبين ويستبدلك بأخرى أكثر نضارة وشبابا... فالعملية كلها مجرد إعلان في الجرائد... وتأتي وفود العارضات... يختار واحدة ويحتفظ بالأخريات احتياطا...

تضحك زهرة بمكر:

– «أتظنني غبيّة إلى هذه الدرجة؟ ولم أفكر في هذا الأمر؟... لقد حسبت حساب كل شيء! لذلك أوّل ما سأقوم به حالما أتزوج منه هو ضمان مستقبلي...

– «أنا لا أفهم جيدا؟... هل أنت تبحثين عن شريك حياة أم عن دفتر شيكات؟...

– «عن الاثنين معا!...»

– «أنا لا يمكن أن أشجعك على صفقة كهذه».

– «لماذا تسدّين الأبواب في وجهي؟... وتعاملينني كأنني ارتكبت ذنبا أو جريمة...؟ هل أصبح الزواج خطيئة؟... هل خرجت عن المألوف؟... هل خالفت التقاليد؟ هل أنا أول امرأة تريد أن تتزوج رجلا غنيا؟

– «أليس الزواج هو كل ما يريده المجتمع من المرأة؟ فها أنا ذا أريد أن أتزوج!»

– «بصراحة اسمحي لي أن أقول لك أن الزواج بهذا المعنى يصبح عهرا مقننا».

– «تغتاظ زهرة... تلتقط حقيبة يدها... تقف تريد الانصراف...».

– «هل أنا عاهر؟ إذ عبرت لك عن رغبتي في الزواج؟ تتماسك «وفاء» لا يبدو عليها الغيظ...».

– «اهدئي يا «زهرة» اهدئي! أنا لم أقصد إثارتك أو تجريحك وإنما عبرت لك عن رأيي بصراحة فنحن صديقتان مهما يكن... اجلسي... سأعدُ لك قهوة لذيذة أتيت بها من تركيا تعدّ ل الأدمغة وتهدّئ الخواطر.

– تهمّ وفاء بالخروج من الصالون يعترضها نبيل في الرواق

– مع من تتحدثين «وفاء»؟

– «صديقتي زهرة هنا».

– أهلا وسهلا «زهرة» كيف حالك؟

تسأله وفاء

– هل أعدُ لك قهوة معنا؟

– «لا تتعبي نفسك سأعدّها أنا لكما يبدو أن زهرة في حاجة إليك» تنبهر «زهرة»... وتبتسم وفاء:

– «نبيل إنسان رائع!».

تضيف «زهرة»:

– «أتدرين ما تذكرت الآن؟ لقد تذكرت زوجك السابق كيف كان يتضايق من وجودي ومن اختلائنا يبعضنا مازالت صورته أمام عينيّ إذ لا يمكن أن أنساها... أتذكّر كيف كان يجلس على الأريكة ويضع ساقا على ساق ويبدأ بإصدار أوامره كأنه أمير شرقيّ أو سنيور من القرون الوسطى كان أسلوبه فجا في التعامل».

– «لم يكن يفعل ذلك أمامك أنت فقط. لقد كان يتعمّد إهانتي أمام كل أصدقائي وأمام الأهل، خاصة أهله لكي يثبت لهم أنه رجل البيت وأن صوته هو الأعلى».

– «هل تتذكرين يوم وجدته خلف الباب يسترق السمع لحديثنا؟».

– «لقد كان يخاف صديقاتي وعلاقاتي خوفا مربكا ولا يطمئن لأحد أبدا... ان أية حركة أو خطوة أقوم بها خارج دائرته تسقطه في دوّامه شك مدمّر...».

«رجل يسيطر على عقله كابوس الشك ويفتك به فتكا مشفقا»

مع كونه لا يعدم نفسه من «الأصدقاء» فهو يحيط نفسه «بعصابة» تتسّع رقعتها باتساع أملاكه وازدهار أمواله وتتقلص بكسوف إشعاعه في السوق ورداءة أحواله المادية».

تلاحظ وفاء أن زهرة قد شرد ذهنها بعيدا وغابت عنها... فكأنها تحولت إلى خط آخر ولم تعد تلتقط ذبذباتها الصوتية.

– «أين أنت؟».

تنتبه زهرة كمن مسّه الوعي فجأة:

– «ولكنه كان ثريا ثراء يسحر العقل. ما كان يجب أن تفرطي فيه أبدا مجنونة أنت! مما كنت تشكين؟ ماذا كان ينقصك؟ كانت لك خادمتان وطبّاخ وسائق وسيّارة...

هل يمكن أن تفرط امرأة عاقلة في رجل مثله؟

كيف فرّطت في معمل الرخام والمزرعة والفيلا... معذرة ما أنت سوى غبيّة.

هل يمكن أن يعثر أحد على كنز ثم يتركه ويمضي... هذا جنون...خور... مازلت أذكرك كيف كنت ترفلين في الحرير في ذلك البيت الكبير... لقد كنت تعيشين عنده مثل أميرة...

– «ومع ذلك كنت أشعر بأنني أسيرة... أو دمية جوفاء... ولم تفلح كل مظاهر الثراء التي كنتِ تعددين في سدّ بؤرة الفراغ والخواء الذي استفحل في داخلي وأخذ يرتع في قفار الذات ويعوى مثل ذئاب الليل في غابات الصقيع الموحشة ... كم كنت أشعر بالغربة...».

– «إنك غريبة وعنيدة... كل خلافاتك معه كانت بسبب الشغل أنا لم أفهم إلى حد الآن سبب إصرارك على العمل؟ ماذا كان ينقصك؟».

– كان الأولى أن تتساءلي لماذا لم يوافق على الشغل أبدا منذ تزوجنا؟

لقد كان يخاف أن أشتغل فأتحرر فيخصى. كان يستمد رجولته من إنفاقه عليّ وعلى البيت ومن تبذيره... لم يكن يشعر «بتوازنه» إلا إذا أرعد وزمجر وبذّر وعربد...

– كل هذا لا يبرّر تفريطك فيه!

– «ربما إنك لا تعرفين كيف كان يشعرني أنه صاحب الفضل عليّ وأنه وليّ نعمتي وأنه يستطيع أن يرميني في الشارع متى خالفت

أوامره ومتى شاء.... لقد ازدادت إهاناته وكشرّت عن أنيابها بعد موت أبي».

– «اسمحي لي أن أقول لك أنك لست ذكية، لم تعرفي كيف تستغلين ثروته طوال مدة زواجك وتبنين مستقبلك وذاتك...».

– «ذاتي؟ وهل بقيت لي ذات معه؟ لقد كان يتفنن في طمس معالمها ويحاول إطفاء بؤر الضوء فيها حتى كادت تخمد تماما كما تخمد جمرات الموقد في الأيام الباردة... وكدت أضحى رمادا وهباء.. لقد كان قاسيا كيوم قارص وكنت أكّن له احتقارا لم أفلح في إخفائه رغم إغداقه علي...

ولكي أهرب من هذه الحالة دخلت متاهات دور الأزياء ودور التجميل... ورميت نفسي وسط مجتمع الصالونات المخملي لأنسى حكايتي بين حكايات النساء ثرثرتهن... وأخفي وجهي في وجوههن... وأعيش من خلال حيواتهن «المضيئة» كما بهرت بها أول الأمر..

كنت أسلّم نفسي لاختصاصيات التجميل ليتفنن في تجميل مأساتي... وليجربن عليّ أحدث الأقنعة وليلوّنني بألف شكل وشكل... لكن ما كان أشد هشاشة تلك الأقنعة والأشكال ما كانت لتقاوم لحظة من لحظات اختلائي بنفسي ولحظة إغماض جفني... لتتساقط الواحد تلو الآخر...وتتركني لذاتي...

– «ماذا كنت تريدين أكثر من ذلك؟ أن ذلك أقصى ما يمكن أن تطمح إليه المرأة.. لقد خرّبت حياتك بيديك... هل يمكن أن تفرط امرأة عاقلة في كل ذلك العز والجاه... أنا لا يمكن أن اقتنع بذلك أبدا لا بد أن إحداهن قد «فعلت لك فعلا» لتخرب بيتك وتحل محلك».

– «بل قولي الحمد لله أنني أنقذت ذاتي وشبابي من تلك المتاهات وإغراء الإغداق قبل أن ينخرني التعفن والفساد...

لقد كدت أنحرف أنا أيضا وأتحول إلى دمية... أتكاسل في الفراش صباحا... وأشرب القهوة على مهل، في دفء... أتفرغ للاستقبالات والزيارات... وأدمن وجهي في صفحة المرأة... كم تسليت بتأثيث ذلك البيت بعدما كان خاويا؟ لكن من يؤثث خوائي؟ ومن يحميني من مواجهة نفسي؟ إذا سألتني من أنت؟».

لقد خرجت من ذلك البيت الكبير بعدما تأكد لي انه أصغر من طموحاتي وأنه بكل ترفه ورفاهته لن يستطيع تحقيق ذاتي...

وفارقت ذلك الزوج بعدما تأكد لي أنه لن يستطيع أن يهدّأ روعي ويطرد عني كوابيس السؤال التي تعكر عليّ نومي...

لقد تم الطلاق يوم تمرّد وجهي على القناع ورفضه وواجهتني المرآة:

– «لست سوى شاة من شياه القطيع كل امتيازها أنها تتربع على أرائك المخمل».

– «ماذا أقول لك ليتني هذه الشاة التي تتبرئين منها».

يدخل نبيل وبيده طبق... تفوح رائحة القهوة... يشعل ثلاثتهم سجائر... تدخن وفاء ونبيل بشراهة وتدخن زهرة بقلق وتوتر...

يسأل نبيل زهرة عن أحوالها فتجيب وفاء

– «زهرة تريد أن تتزوج!».

ترد زهرة:

– «هل في ذلك عيب؟».

يجيب نبيل:

«لا أبدا! هذا يتوقف على قناعاتك أنا شخصيا لست ضدّ الزواج ولكن وفا هي التي تصّر أن تبقى علاقتنا حرّة».

ترد زهرة:

«الحقيقة أنا ليست لي شجاعة وفاء وجرأتها، هذه الحريّة تخيفني».

تحاول وفاء أن تبعث فيهل بعض القوة:

– «تستطعن لو أنك اعتمدت على نفسك فأنت لست ضعيفة كما تتوهمين».

– «أوه أنا لست مثلك فأنت إنسانة مثقفة لك وظيفة محترمة في البنك ولك شهائد عالية أما أنا...».

– «ألم أقل لك أنه يجب عليك أن تشتغلي».

– «وهل أقول لك ثانية أن ليس لي شهائد».

يتدخل نبيل:

– «وفاء تعتبر العمل شرطا أساسيا في علاقة الرجل بالمرأة وهي تردد لي دائما أنها لو لم تكن تشتغل لما قبلت العيش معي أبدا».

تعلق وفاء

– «إذا مُدت الأيدي انحنت وراءها الرقاب».

تطلق زهرة زفرة مثقلة بماضي أليم:

– «إن ظروفنا لمختلفة جدا... فأنت من عائلة ميسورة، لم تعرفي الفقر. أبوك كان أستاذ فلسفة في الجامعة. أما أبي فقد خانته اللغة فعاش على هامش «لعبة الكلام» ولكنه تمكن رغم ذلك من تبليغ الرسالة بأقسى صمت وفي آخر لحظة من حياته عندما أخذه الفقر من بين عيوننا المعلّقة بالباب تنتظر عودة أمي بأجرة يومها وبالدواء... نحن الخمسة أطفال لقد استغل الفقر طفولتنا وسلب منا أبانا ولو كنا جاوزنا تلك السن بقليل لما تركناه يسرق «النفس الأخير» لما تركناه أبدا...

أمي كانت تشتغل بالمنازل منذ هدّ الدهر أبي ومازالت... ذهبت في ذلك اليوم لتعود بالنقود ولكن الموت كان يتربص بنا. ما أن خرجت حتى انقض على روح أبي... خرجت وتركت عيوننا معلقة

بها يملأها بعض أمل.... ولكنها عندما عادت وجدت خواء وفراغا بأعيننا... حينها أدركت أن القدر يستطيع أن يفقأ عيون الأطفال إذا قضي الأمر وأدركت أن سدّ هذا الفراغ الذي تركه الأب في عيون أطفاله يحتاج إلى دهر بأكمله...

كانت أمي في الثامنة والعشرين عندما مات أبي... لم تتزوج بعده أبدا بل ضاعفت من شغلها...

أما أخي الصغير فقد كان يحمل همّ صغر سنة طوال طفولته ويردد «يا إلاهي أريد أن أكبر بسرعة» وعندما تسأله لماذا يجيب:

– «لكي أشتغل وأملأ هذا البيت دواء... حتى إذا مرض أحد وجد الدواء جاهزا».

وعندما طالت عليه الأيام وتبلّدت الساعات وتكاسلت الثواني ضاق ذرعا بطفولته وقرر أن يشتغل قبل أن يكبر...

كانت أمي تريدنا أن نواصل تعليمنا تنفيذا لوصية أبي ولكن رغم ما فعلته معنا فلم يفلح فينا أحد، ورفتنا المدارس الواحد بعد الآخر... الحقيقة أننا لم نكن مولعين بلعبة تفكيك الكلمات وإعادة تركيبها ولا بأمر الاكتشافات والاختراعات ولم يكن يهمّنا إذا كان «كريستوف كولومب» قد اكتشف أمريكا أو بلاد الواق واق بقدر ما كنا مهتمين بالبحث عن موقعنا من الأرض... كما أن ذاكرتنا استعصت عن حفظ أسماء مخترعات «بستور» أو «كنساي» أو

«شارل نيكول» من أدوية بما أنها لم تشفع لأبي ولم تردّ له «النفس الأخير».

لقد تلقينا الدرس مبكرا جدا قبل أن تطأ أقدامنا عتبة المدارس التي لفظتنا بسرعة فتلقفنا الشارع بكل رحابة صدر و«احتضننا»... ولكننا لم نستطع طويلا مقاومة صقيع الأرصفة وقسوتها فتزوجت أنا وأختي حليمة ولم نكن نعلم أننا انتقلنا من فقر إلى فقر... أما الأولاد الثلاثة فإنهم يتقاسمون البطالة والتسكع والسجن.

– «ولكنك كنت أحسن حالا منهم جميعا فلم عدت إليهم؟».

– «عدت إليهم لأنقذهم من الفقر والانحراف والسجن هل فهمت الآن؟ لماذا أريد أن أتزوج رجل الأعمال هذا؟».

تحت ظل تلك الزيتونة الباسقة المتدليّة أغصانها حتى الأرض على منحدر الوادي بآخر كروم العنب كان الهادي المعلّم المعتصم بالأرياف يقضي أغلب أوقاته... يعود إليها منهكا بعد انتهاء الدروس كما يعود الطفل إلى صدر أمه بعد طول تشرد وغربة... يعود إليها وقت الظهيرة لينعم تحت ظلالها بالتهام كتب ماركس ولينين... يستمّد منهما مستقبل هذه القرية البائسة الراشحة بكل أسباب الفقر والأوبئة والبطالة...

هذه القرية التي هجرها المعمّرون الفرنسيون مكرهين... تاركيها لأبنائها الأصليين الذين سرعان ما لحقوا بهم بحثا عن لقمة العيش وأشياء أخرى لا يبوحون بها «للأم الثكلى»... ولكنها تنفجر وتسفر

عن نفسها هناك بعيدا عن عيون القرية في ليالي باريس الواعدة بكل الأحلام الممنوعة والمحرمة...

لقد هاجروا أو هُجّروا بعدما تركوا أبناءهم أمانة في رقبة الهادي الذي تعهّد بأن يعلّمهم مبادئ النضال وأن يصنع منهم مستقبل القرية.

لكن الهادي لن يستطيع بناء هذا الجيل المجرور إلى صفوف المدرسة جرا المتكاسل على مقاعدها إلا بمزيد من التعبّد في «غار حراء» يستحضر أرواح ماركس ولينين ويستنطقهما بخصوص واقع القرية فيغدقان عليه بكرمهما المعهود. ليخرج متخم الفكر بتلك الأكلة الواعدة، العسيرة الهضم في أن واحد بالنسبة إلى تلاميذه على الأقل الذين رفضوها أول الأمر لا عن موقف فكري بل عن كسل ذهني ثم ابتلعوها ابتلاعا بسبب خواء أمعدتهم أو أدمغتهم...

وأحيانا يطل الهادي من وراء الوادي خارجا من «غار حراء» مترنحا ثملا تفاؤلا وزهوا بأرض القرية التي ستصبح جنة على أيدي الرفاق الذين يشكلون «كومنوتي» القرية...

على المنحدر وتحت شجرة الزيتون يحلم «الهادي» بالثورة وينتظر عودة الرفاق المهاجرين... يحلم بجيش من سواعد أبناء القرية يهبّ راكضا في ثورة مجنونة مشيّعة بزوابع الغبار متجهة نحو العاصمة. لتهجم على الزمرة الحاكمة وتكمش أذيال البورجوازية المتحالفة معها بمساعدة الرفاق المبثوثين في الجيش، تقطع رؤوسها وتعود بها إلى القرية لتزين بها سورها.

كان ذلك ما تعاهد عليه وأبناء القرية منذ أيام الدراسة منذ أن كانوا يقطعون مئات الكيلومترات حفاة عراة إلى المدرسة أيام الحرّ والقرّ... ومنذ «ثورة الخبز» التي «استشهد» فيها شقيقه المنصف وكثير من الرفاق...

في الأيام الأخيرة استطاع الهادي أن يستجلب بعض الزملاء المدرسين معه إلى «مقرّ الثورة» أو «مكتب الثورة» كما كانوا يتندرون بتسمية شجرة الزيتون... وقد أعطاه ذلك دفعا جديدا لمواصلة الكفاح والانتصار على النكسات التي تعرضت لها الثورة... والثأر لأرواح الرفاق الذين سقطوا يوم «3 جانفي (يناير)» يوم ثورة الخبز.. لقد أصبح الهدف واضحا: الاستيلاء على «المطبخ السياسي» لتوفير الخبز لكل الأفواه الجائعة. أما في الليل فتتبدل أحوال الهادي ويصبح محاصرا مطوقا بكلمات «زهرة» : «أنت رجل فاشل».. «أنت رجل فاشل»... مهزوم ومعذب بكوابيس صوتها وقد ظنّ أنه تخلص منه بعدما طلقها... ولكن هيهات فها هو ينزلق في دوامة شك محموم يتردد في تجاويف نفسه كرجع الصدى:

– «هل أنت رجل فاشل يا «الهادي»؟... أحق ذلك؟... ابعد كل هذا النضال؟... والأجيال التي صنعتها؟... والرفاق الذين أدخلتهم في الثورة أفواجا؟....

مقصيُ ووحيد يستحث الذاكرة على مدّه بتاريخ كل الأبطال الذين دفعوا ضريبة عنادهم وإصرارهم وكفاحهم... وعبثا يحاول أن يقنع النفس أن صوت «زهرة» الذي يجلده في حلكته كل ليلة ما

هو إلا تلك الضريبة اللعينة التي لا بدّ من دفعها لعبور بوّابة التاريخ ودخولها دخول المنتصرين الشامخين...

جثة أخيه المنصف الذي سقط أمامه في حوادث «3 جانفي» تنهض كل ليلة عائمة في ساقية الدم تذكره بالثأر... تلك الساقية التي ما يكاد يغفو حتى يغرق فيها كل ليلة منذ أحداث 1984 المرعبة.

لم يكن ليستردّ أنفاسه حتى يتمثل له «لينين» مُلثما ملتحفا ببرنس «أحمر» كي يستطيع أن يقطع القرية بأمان ويصل إليه... يمدُ له يده وينتشله من ساقية الدم ساقية الكوابيس...

وفي ليال أخرى تكون يد أمّه هي التي تمتد فوق مساحات جسده تبسمل وترقيه... تحاول تهدئة الجسد النحيل المتصلّب كحزمة قضبان حديدية... كثيرا ما تتدخل «أم الهادي» بالصلوات على النبي وقراءة القرآن لفك ابنها من أيدي «الناس الأخرى» مستنجدة بأولياء الله الصالحين وبجدّها «سيدي بالحسن الشاذلي» تنذر الولائم والشموع لرجال البحر تتوسّل بهم ليفكوا ابنها من «تحت أيديهم» والله وحده يعلم تحت أي سلطة يقع الهادي المسكين «تحت أيديهم» أو «تحت أفكارهم».

تداهمه هذه الكوابيس كل ليلة على ترجيع نحيب القرية الغارقة في سوادها... النائحة على فقدان أبنائها الذين غادروا بيوت القرميد الأحمر التي بناها الفرنسيون أو الإيطاليون والتي تبدو الآن متناقضة مع من بقي من سكانها الحاليين المتكئين دوما عند الحائط.

متوسدين أذرعهم ملتفين في برانسهم البالية.. يتثاءبون ويرتشفون الشاي الأسود... رشفة... رشفة... يملؤون العين بمساحات كروم العنب الممتدة أمامهم والتي خلفها لهم المعمّرون أيضا... يحلمون بقدوم الموسم ويعدون النفس بتعويض حرمان العمر... ولكن كثيرا ما تخيب الآمال عند الموسم وتتراجع الأحلام بذلك الحذاء أو بذلك الفستان للأم الهالكة شقاء وتعبا... إذ يقضي تسديد الديون على كل ألق في العيون... فيهاجر الحلم ويبقى الإحباط ولكن ما يكاد يعود الموسم القادم حتى يتصالح الفرد مع حلمه ويبادر لاحتضانه... بينما عناقيد العنب قد بدأت تتدلّى من شجيراتها.

إلى أحد هذه البيوت يعود الهادي للعيش مع أسرته التي غادرها منذ تزوج لعدم رغبة زوجته العش مع أهله... ها هو يعود إلى بيت طفولته وصباه... ولكنه يبدو غريبا... منفيا... وحيدا... يتيما...

كأنه لم يعش معهم عمرا... كأنه لم يقاسمهم الحلم واندحاره... يجلده إحساس قاتل بالتقصير في حقّهم... فيعاهد نفسه على التضحية بكامل راتبه لطرد مسحة الحزن من عيونهم... لكنه يتذكر الديون التي تركتها له زوجته «زهرة» فتداهم عينيه سحابة سوداء عقيمة لم تمطر أبدا.

عندما حلّ الصيف عاد أبناء القرية المهاجرون إلى أوكارهم كالطيور المزدانة الأجنحة يختالون في أبهى حللهم... يحرثون القرية جيئة وذهابا بسياراتهم يوزعون الهدايا على أبناء العشيرة الذين يتنافسون في استضافتهم...

ما ان سمع الهادي بقدوم «الرفيق منصور» حتى تسلّل إليه ليلا مهرولا بين مسارب كروم العنب الخفيّة الملتوية تحسبا لكل العيون... يريد أن يأخذه إلى «مكتب الثورة» ليحيطه علما بآخر التطورات: إضراب المعلمين، تخاذل النقابة اختفاء بعض الرفاق والتقاط آخرين من بيوتهم تحت جناح الليل... اكتشاف عدة جواسيس في الخلية الحزبية يعملون لفائدة النظام الحاكم... الإيقاف التعسفي عن العمل...

كان صدره يحتدم بكل هذه القضايا كالمحيط الهادر وهو يقطع الطريق إلى رفيقه وصديقه منصور لعله يخفف عنه بعض العبء.

لما وصل إلى بيت منصور وجد أن الأصحاب قد «اختطفوه» إلى العاصمة لقضاء سهرة الشوق والحنين... عندما قفل راجعا كانت الأحداث المتّقدة في صدره تذوي الواحد تلو الآخر... تُنكس فتائلها وتؤجل نارها إلى صباح الغد.

في الصباح بينما كان يستعد للخروج من هزيمة الليل وينفض عنه آخر أذيالها... محاولا الظهور بوجه مشرق يليق بهذا الصباح الجديد كان منصور ينتظره في الخارج...

خرج إليه «الهادي» مسرعا وفي غمرة احتضانهما لبعض غفر له اختفاءه ليلة البارحة... ثم أخذه من يده ميّمما وجهه شطر شجرة الزيتون لكن منصور غيّر اتجاهه هذه المرة:

– «تعال معي تعال هناك قطعة أرض أريد أن نعاينها مع بعض أرغب في شرائها هذه السنة لأبدأ بناءها السنة القادمة».

في الطريق أعلمه منصور أيضا أن مشروع الدواجن قد فشل بسبب عدم رعايته وغيابه وأنه لن يعود حتى يسلّمه له ويتركه بين يديه:

– «لن أثق بأحد غيرك... بل ستدخل معي شريكا أنت بالعمل وأنا بالمال ما رأيك؟»

أحسّ الهادي أن غيمة ضبابية لزجة داكنة ثقيلة غريبة عن طقسه قد داهمته في يوم صيفي شهيّ... تلتها زوبعة بعثرت أفكاره وشّوشت أحاسيسه نحو صديقه وعبثت بمشروع العمر مشروع الثورة الاشتراكية الذي تعاهد كل الرفاق على إنجازها..

التفت منصور إلى الهادي ليرى ردّه على مشروعه فلاحظ أن التألق الذي استقبله به منذ لحظات قد اختفى تماما .... وأنً حمما قد هدرت داخله:

– «مربّي دواجن»؟.. مربي الأجيال يصبح مربي دواجن؟.. منصور الذي كان يعهد إليه بتربية أبنائه صار يعهد إليه بتربية دواجنه؟!

ماذا يختلف الرفيق منصور عن زهرة إذا؟ تلك الزوجة الوصوليّة التي لم ترق يوما إلى مستوى أهدافه...

لم يكن يدري تماما هل وصلت هذه الكلمات مسمع «صديقه» أم أنها دوّت فقط في قعر نفسه؟...

في تلك الأثناء دوّى صوت الصبيّ «عمّار» في الفضاء بصراخ متقطع... التفت الهادي ليرى قامة شقيقه الأصغر تلوح من بعيد... مخلفة وراءها زوبعة من الغبار تثيرها الساقان النحيلتان الحافيتان.. لاهثا متقطع الأنفاس:

- سيدي... سيدي الهادي... ارجع ... ارجع... البصطاجي (ساعي البريد)... برقية...

حبست رجلا الهادي فجأة... ثم التفت إلى منصور «اذهب أنت سألتحق بك» ورجع مع الصبي.

عندما فضّ البرقية نزّت حبّات عرق بارد من جبينه مسحها بسرعة بقفا يده... دسّ الورقة في جيبه... تفطن إلى جمهرة الأطفال حوله وحول ساعي البريد.. سلَ نفسه من عيونهم وانزلق كاللص الفاشل صوب المنحدر.

تحت الزيتون أو في «مكتب الثورة» أخرج البرقية المتغضنة من جيبه وأعاد قراءتها أكثر من مرة ليتأكد من صحة ما جاء فيها وليتأكد من سلامة مداركه العقلية.

في المنحدر ردّد الوادي أصداء ضحك هستيري اضطربت له وريقات الدفلى النائمة على حافتي الوادي... ثم عبثت الرياح بكلمات

تناثرت مبعثرة من فوهة بركان الحمّى الذي اضطرم في صدره:

– «إيقاف عن العمل!... هاهاها... مشروع دواجن... هاهاها... طلاق... هاهاه... فشل... خيانة... هاهاها.

ثم خرس الوادي فجأة ليردد مع الهادي نشيج خرابه الداخلي الذي تحوّل من قهقهات إلى وصلات نواح وعويل أخرس لا يسمعه إلا الهادي والوادي...

يقع نظره على المياه التي تسعى حثيثة أمامه يأخذ في السير معها ببلاهة مريرة...

«أهذه هي نهايتك أيّها «الهادي» أيها المثقف الثوري؟ ماذا فعلت؟... أو ماذا فعلوا بك؟ لقد درت دورة ورجعت إلى نقطة البداية؟.. بل لقد درت نصف دورة ورجعت إلى ما قبل البداية؟.. والآن ماذا ستفعل؟ أيها النسر المقطوع الأجنحة...؟ هل ستتوسّد ذراعك أنت أيضا وتنضم إلى صف المتكئين عند الحائط، ترتشف الشاي وتتثاءب تأكل أو لا تأكل... تنام أو لا تنام... تحمل شهائدك وساما منسيا كما يحمل أوسمته جنرال مخلوع...؟

بغزارة وتدفق أخذ شريط حياته يبث من ذاكرته، أمام عينيه في استعراض معذّب:

كان مشهد «زهرة» وهي تجمع أغراضها لتغادر البيت قد جعل أعصابه حزمة أعواد كبريت لا تنتظر سوى شرارة كي تندلع... لم تكن بعيدة تلك الشرارة... رغم هروبه منها... إنها تقترب...

تقترب... تداهمه... تندلع... تحوّل رأسه إلى ألسنة لهب... لقد جعل إصبعيه في أذنيه وصار يهرول... كالمعتوه والشرر يلاحقه...».

«أنت رجل فاشل... أنت رجل فاشل...»

حتى الشرر الذي كان كامنا في عيني أمه قد اندلع... رغم أنها لم تتفوه بكلمة واحدة.. هل كانت تعبّر له عن فشله بطريقتها الخاصة عندما تشفق عليه ترقيه وتحتضنه...

وهذه العائلة الرازحة تحت ظل الحيطان؟ وقد أصبح مسئولا عنها بشكل مباشر... ماذا سيقول لها؟... ماذا سيقدم لها؟ أيعوّل على أخيه الأصغر وقد أصبح يدسّ في كف أمه بعض الدنانير تغمر العائلة سعادة على قلّتها... أيشارك أخوه بالمال ويشارك هو بالنظريات؟... جحيم من الأسئلة يرتطم برأسه الذي تحولت خلاياه إلى أسلاك كهربائية... لتفقده ما بقي من صوابه...

لم يجد من مشفق عليه سوى خطواته التي قادته حيث يمكن أن يطفئ لهيبه أو يخمد براكينه... ولم يدر كيف وجد نفسه وسط مخزن الدواجن أمام «الرفيق منصور»: «قد قبلت المشروع»؟

كان يدندن بأغنية عبد الحليم: «أسبقني يا قلبي أسبقني»، وهو، يسوّي ربطة عنقه أمام المرآة الفسيحة التي انتصبت في صدر البهو ضمن التجهيزات العديدة التي أدخلها على بيت أهله في انتظار انتهاء بناء بيته... كان «منصور» وراءه يذكره بقرب الموعد يلتفت إليه بفضول مراهق:

– «لن أخرج حتى تشرح لي كيف رتبت لي هذا الموعد...؟»

– «على طريقتي الخاصة. الطريقة الأكثر عصرية والأكثر عمليّة... كتبت بشأنك إعلان زواج في الجرائد يليق بشريكي رجل الأعمال الكبير... بشروط حسب الأصول».

– «لكن كيف وقع اختيارك على صاحبة الموعد؟

«عن طريق القرعة فقط... تلقيت كثيرا من الرسائل... سحبت واحدة ومزقت كل الرسائل الباقية لأتركك وحظك».

عندما وصل الهادي مكان الموعد كانت «زهرة» هي التي تنتظره...

كتبت في: «باردو» أكتوبر 1989

قصص ما بعد مجموعة

«ليت هندا...!!»

حمّالة البشر

هذا الصباح... قمت متفائلة.. فقد كنت رأيت في المنام أنني حبلى.. وأنني سعيدة بذلك على غير عادتي.. فأنا في الواقع ما أحببت الحمل قط ولا حلمت بالإنجاب... ولا فكرت فيه مشروعا من مشاريع حياتي... بالعكس فقط حملت ألام الوضع كوابيس منذ صغري...

وفي المرّة الوحيدة التي أنجبت فيها ابني الوحيد لا أدري لحد الآن كيف تصبّرت به تسعة أشهر؟ على أنني أذكر أنه في الثلاثة أشهر الأخيرة اعتكفت واعتزلت الناس ولزمت البيت وكان أن صادف ذلك عطلة الصيف. الحقيقة التي لم أبح بها لأحد إلى الآن هي أنني كنت أخجل من شكلي.. وقد كنت أعتبر جسدي مشوها وأنني في حالة مرضية حتّى الد.....

لقد بدأ منذ الأشهر الأولى جسمي يتغير غريبا عني ويفقد شكله والتناسق وأخذت مناطق الخصوبة تفيض فيضا تلقائيا، فوضويا وعشوائيا... وبدأ أمر جسدي يخرج عن إرادتي حتى بت مقصيّة ومنفية خارج جسدي.

في الأشهر الأخيرة صرت أتفادى الوقوف أمام المرآة وأتفادى صورة جسدي تردني إلى كهوف ومعابد الشرق القديم حيث كانت الأنثى ترسم على شكل دمى طينية مكوّرة عارية... وكرهت جسدي مكوّرا لم يتخلص من بصمات فنان العصر الحجري...

وتلبستني تلك الدمى الطينية المكوّرة... ما أكاد أغمض عينيّ حتى تتزاحم أمامي صور مشوّهة لأجساد مختزلة إلى بطون منتفخة، عليها رؤوس صغيرة غائبة الملامح دون وجوه... وأجساد من الصلصال أو الطين، على شكل جرار، انفخ فيها فتتحول إلى جمامج... ومرّة أتحول إلى جرّة فخارية تردني إلى «عصر الفخار»... لقد بقيت مدّة تسعة أشهر أنتمي إلى «عصر الفخار» حيث جسد الأنثى يختزل إلى جرة.

وصرت أتشاءم بكل جرّة أراها ولم يعد جسدي في عيني سوى جرّة كبيرة تختمر فيها بذور الحياة لتندلق يوما من الرحم ولكن تختنق فيها أنفاسي أيضا... بدأ عنق الجرة يضيق بقدر ما ينتفخ بطنها...

وكشمعة ترتجف بردا وسط كون مظلم كانت أنفاسي تضطرب...

لقد احتوى جسدي المباهج والمهالك كلها في آن... يتنازع الموت والحياة على وليمة فجيعته. عهد جهنمي يستيقظ في ذاكرتي... عادات قديمة تنهض من غابر الأزمنة وتداهمني...

لا أرى إلا المقابر وقد نشطت فيها من جديد تقاليد دفن الموتى أو دفن رمادهم في الجرار... أدركت من خلال كوابيسي ما أدركه مبكرا

إنسان ما قبل التاريخ العلاقة بين الجرة والتابوت... وعرفت لماذا كان العبرانيون يحتفظون «بالجرة المقدسة» داخل تابوت العهد القديم مع لوحي الوصايا اللذين تلقاهما موسى من يهود... أثناء تيههم في الصحراء... وعرفت لماذا كان إنسان العصر البدائي يستعمل الجرار الفخارية... كتوابيت للموتى... ولماذا كانت تتخذ الهياكل العظمية داخلها شكل الجنين في بطن أمه...

وأهلع إذا مرّ وقت لم يتحرك خلاله ما ببطني ويحولني رعبي إلى جسد متخشب له شكل تابوت قديم... وإذا تحرك ما ببطني يتهيأ لي أن الهيكل العظمي سيبعث واقفا ويطالبني بتخليصه من هذا القبر... تختلط مناطق الرعب بمناطق الخصوبة حتى لم أعد أميز بين جنيني وجنين التابوت...

وعندما اقترب موعد الوضع رأيت نفسي ألد على سرير من الجماجم... والعالم قفر ولا أحد إلى جانبك... وحدك والموت يواجهك... ولم أكن أرتكز بيدي على رؤوس حيوانات أو نبات كما كانت تفعل عشتار... لم أكن أبسط سيطرتي على أي شيء... مسلوبة الإرادة... يتحول السرير إلى قبر وأنا ممدّدة داخله وقد طالت حالة الوضع.. وطالت الإقامة في القبر... حتى اندلق وليد من بين فخذي يضرب بقدميه اللحد... ويصرخ صرخة ينفتح لها القبر...

ولا أدري أن كان قد خرج وتركني وحدي... أم أنه تذكرني بعدما كان قد انغلق علي القبر.

عندما صحوت في الصباح فكرت جديا في الإجهاض!... يومها قضيت يوما مريحا واستطعت أن أنعم بشعاعات الشمس...

في الليل رأيت «ربّة الينبوع» تغسلني بماء تدفق من فوهة الجرّة الفخارية التي تحملها بيدها. يميل عنقها قليلا إلى الإمام (تماما كما رأيتها في متحف مدينة حلب)، تمطرني ماء صافيا عذبا. تُعيد إليّ طمأنينتي وتذهب عني كوابيس التوابيت والجرار – الأرحام. تعيدني إلى الطبيعة البكر حيث لم يحمل الإنسان البدائي فكرة الموت كوابيس وأهوالا ولم تسكنه فكرة العدم والفناء بل تقبّلها بصدر رحب إذ كان يعتقد أنها عتبة وجسر عبور إلى عالم آخر... أما أنا فلا عالم اخر لي غير هذا العالم؟؟؟

كانت «ربة الينبوع» تغسلني بعذب المياه وتقص عليّ أساطير الأولين:

في البدء كانت عشتار ولا أحد معها.

أمومة تنضوي على المبادئ الأولى.

ثم تبدت فخلقت وأعطت...

الأم الكبرى التي يهب جسدها طفولة الإنسان دفئا وأمنا وسكنا.

تطلق الحياة من رحمها وعلى جسدها

وفي أحضانها.

عشتار أمومة كاملة في كل حيّ وجامد.. جسدها الأنثوي وعاء سحري يتحول الدّم داخله إلى حليب يتفجر من فوهة الثدي. ورحمها جرّة مقدسة تحتوي نعم الحياة وأسبابها لتطلقها نحو الخارج...

سرّتها مركز الكون ومعبدها قبلة إنسان العصر القديم...

وقد كانت عذراوات النار المقدسة يحملن إليها الجرار الفخارية قربانا في هياكلها. سيدة الشعلة الأولى.

بينما كانت عشتار «آلام الكبرى» تقص عليّ قصتها... رأيت الينبوع نضب فجأة وسقطت إثره عشتار خرقة إلى العالم السفلي... ورأيت حاجب بوّابة العالم السفلي.

يخلع عن رأسها الشوجار تاج السهول

ويقتلع من كفها الصولجان اللازوردي.

ويسلبها كل زينتها وثيابها.

حتى مثلت عارية تماما من كل سطوة أو سلطان.

نظرت إلى نفسي فوجدت الجرة قد انتقلت خاوية إلى يدي...

لم تكمل لي عشتار القصة لكنني عرفت فيما بعد أن الراعي اغتصبها عندما غلبها الكرى فغفت تحت إحدى الأشجار الباسقة في حديقة البستاني «شوكاليتودا» بعد أن أنهكها التعب من كثرة الحمل والوضع... فاستسلمت لسلطان الكرى في بستان جميل لأحد

الناس من البشر ويبدو أنها كشفت عن مفاتنها الأنثوية فوقعت عينا الراعي على مفاتن جسدها فاغتصبها وهي نائمة...

رميت الجرة من يدي حتى انكسرت وصرخت في نومي وفي يقظتي...

لم أكن آلهة... لست سوى جرة...

ولم احمل الصولجان قط فأنا لست سوى حمّالة للبشر...

ومثلما ذهبت عشتار تبحث عن وظائف أخرى بعدما وقع لها ما وقع... عندما لم تشفع لها ألوهيتها، من أن يغتصبها الراعي. ذهبت أنا أيضا أبحث عن وظائف أخرى تضمن الوهيتي وتثبت وجودي... أما الجرّة من يدري؟ قد تنضب يوما ثم أن شكلها بصراحة لا يعجبني. إنها تشوّه الجسم وتفسد التناسق.

كتبت بتونس نشرت بجريدة «الصحافة» 7 جويلية 1993
وبجريدة «القدس» أدب وفن. 23 فيفري 1996
مجلة «أفكار» الأردنية اوت 1995
«الجماهيرية» شهر الحرث 1425

أحلام الشّيخ «مسعود العزّام»
أو
الشيخ مسعود الوصيف

عندما بات القمر في منزلة الثريّا، استقبل الشيخ «مسعود العزّام» القبلة، جاثيا على ركبتيه، كالجالس إلى الصلاة، فوق سجّادته الصغيرة، المفروشة على حصير، بال، أخضر. لابسا لباسا أبيض، لا سواد فيه. خاضع الرأس، مرهق الوجه، حادّ العين، يحرق الجاوي والدّاد والندّ، في مجمرة نحاسيّة قديمة أمامه، تتصاعد منها سحب كأنها أشباح. يحاورها... يتوسّلها... يتسوّلها... يتوعّدها... يتقرّب إليها... يهدّدها... وهي تملأ المكان رهبة غامضة...

تحيط به كتب صفراء قديمة مكدّسة على الأرض، متآكلة الأطراف. بجانبه دواة وريشة من قصب يغرق رأسها المذنب في زجاجة الحبر المكوّرة.

في ركن وراءه، بعض الحيوانات المحنّطة أو المذبوحة تبدو من بينها: البومة، بعينيها المحفورتين، شمطاء بجلدها المتيّبس الجاف... معها أعضاء حيوانات أخرى متفرقة: ساق دجاجة بيضاء، رأس ضفدع،

دماغ ضبع، كبد شاة سوداء، كبد تيس، مرارة الضان، جلد حنش أصفر... يتموّج فوقها البخور على ضوء مصباح ضئيل... فكأنّما يحركها لتتحفّز وتتجمّع كلها لتُبعث حيوانا أسطوريا قادرا على مداواتك من كلّ شرورك...

غير بعيد عن مجلس الشيخ مسعود جرّة ماء مشقّقة الفم، فوقها مشرب من فخار، رطب الحافة، لا تقترب منه الشفاه إلا بالبسملة والتمتمة... جنبها إناء نحاسيّ قديم.

بالحائط المتكلس المشقّق فلقة معلّقة، تحتها أكوام ألواح صغيرة، مستطيلة، مرصوفة فوق بعضها، مخطوطة بحروف حبر أسود غليظة أو باهتة حسب حفظ السّور ومحوها... متشقّقة من بعض أواسطها أو متآكلة من أطرافها. تمسكها بالنهار أيدي صغيرة، مرتجفة، ينزلق قلم القصب على سطحها الأملس، يفتح أبواب الغيب والسماوات والأرض: «نون والقلم وما يسطرون» يردّدون في شبه غيبوبة: «نعم أسيدي نون والقلم وما يسطرون»... يكرّرون أساطير الأوّلين مأخوذين بسحر إيقاعها: «... ألم ترى كيف فعل ربك بعاد، إرم ذات العماد التي لم يخلق مثلها في البلاد وثمود الذين جابوا الصخر بالوادي وفرعون ذي الأوتاد...» ثمّ ينطلق الصّبية آخر العشيّ مطلقين أرجلهم للريح: «نعم أسيدي سرّحنا الله يمدّ عظامك في الجنّة».

أما الشيخ مسعود فأنّه يتنفس الصعداء أيضا ويتحرّر من عناء الصبية وصخبهم... فيقوم لإبريق الماء، يملؤه وينتبذ به حائط الكتّاب الخلفي. للوضوء ليخف وينشط وينشرح صدره لاستقبال مرضاه...

ما بين المغرب والعشاء تكون زيارات النسوة المتعبات، قليلات الحظ، المقهورات من غبن الزمان ولا عدالة الأقدار. ينشدن حجابا، رُقية أو تعويذة ترد عنهن شرور الحسد والعين والبغضاء وغدر الرجال الذين لا يؤتمن جانبهم تماما مثل الزمان...

هذه الليلة بعد صلاة العشاء طوي الشيخ سجادته أمامه، تخفّف من بعض ملابسه واستوي في جلسته. على يمينه رفّ، به صفّ زجاجات، بها دهون وعطور، تحتها فتائل زرقاء... قراطيس بخور نصف مفتوحة... وأوراق أعشاب متنوعة... يقابله الباب الخشبي، العتيق، مواربا، تتسرّب منه بهرة ضوء قمر خافتة...

امتدت يده إلى صحن الطعام الذي يأتيه دائما من جاراته: نسوة الحي. تمنى لو أن إحداهن تشاركه طعامه... وليله وسهره وقيامه... ولكن من يعبأ بأحلامه؟؟؟ الكل يأتي متعبا ينشد فرجا لآلامه... أو ربما يتصورن أن الشيخ العزّام لا يحلم، لا يتمنى، لا يعشق، لا يشتهي... وهناك من يتحدث عن معاشرته لجنيّة متلبّسة به تلبّي له كل رغباته و شهواته... وهناك من يقول إنه متزوج من حورية من حوريات الجان لا تظهر أبدا في النهار... و هناك من اقسم انه رأى طيفها ليلا وهو يدخل غفلة على الشيخ العزّام...

كان الشيخ مسعود «العزّام» منهمكا في كتابة سورة الزلزلة، متفرقة الحروف، في صحيفة من رقّ الغزال ألف مرّة... وقد بخرّها بالحنتيت والكبريت... ثمّ قام فمحاها واحتفظ بمائها في إناء النحاس. عاد بعد ذلك فأخذ شقفة طاجين قديم، كتب عليها أسماء القمر

معكوسة، تسع مرّات، بقطران أسود من الدفلى المُرّة ثمّ أوقد فتيلة زرقاء وأخذ يتكلم بتلك الأسماء معكوسة ويبخر بالجاوي... بعدها كتب اسم مصطفى «ولد زكيّة» وزينب بنت محبوبة وأيضا: «كلما أوقدوا نارا أطفأها الله أشعلها الشيطان... بين فلان وفلانة...» ينادي «دردانيل» و«دهنش» و«ميمون الأحمر»: «انفروا خفافا ثقالا. يومئذ يصدر الناس أشتاتا... اللهم فرق بين فلان وفلانة كما فرّقت بين السّماء والأرض... افعلوا ما أمرتكم بحق الذي قال للسماوات والأرض أأتينا طوعا أو كرها فقالتا أتينا طائعين...».

يأخذ الحفنة من البخور، من قرطاس بجانبه و يرميها بالمجمرة... يتضرّع و يتوسّل حتّى تتبدّل سحنته: «أيّتها الملوك الأربعة ابعثوا لي خادما من عفاريت الجن يفرق بين فلان وفلانة. يهتك سترهما ويشتت شملهما...».

ثمّ محا تلك الكتابة واحتفظ بمائها في قارورة لترشّ بها امرأة مصطفى الجزّار عتبة بيت المرأة التي يتردد عليها زوجها.

من جوف الليل دخلت عليه «ساسيّة القابسيّة» والقابسيّة امرأة في ربيع عمرها، طويلة، مستقيمة القامة، بدينة، لكن صلبة العود، دون ترهل، مستديرة الوجه، مقوّسة الحواجب السوداء المدبّغة، سمراء سمرة قاتمة، يتمطّى اللّبان تحت أضراسها دائما، يكشف عن أسنان تلمع من اثر السواك، تكشف ضحكتها عن ضرس مذهبة و أخرى وراءها سوداء منخورة. لا يفارق الكحل عينيها الواسعتين اللوزيتين. شعرها ضفائر غليظة سوداء سوادا فاحما. تنزل على صدرها الممتلئ وأحيانا تديرها حول رأسها. لا تمحي الحناء من يديها ورجليها.

قدمت «ساسيّة القابسيّة» إلى العاصمة مع زوجها من مدينة «قابس» (بالجنوب التونسي) بعد أن باعت حليها ونصيبها في أعواد الزيتون، للتداوي. وقد استأجرا غرفة، مع الجيران، بالمدينة العتيقة، بتكيّة «دار بالخوجة» الذين باعوا بيتهم القديم وانتقلوا للسكن في ضاحية المرسى كما فعلت جل عائلات «البلدية» من سكان المدينة العتيقة.

عندما كانت «ساسيّة القابسيّة»، تنقل أغراضها وتعمّر بيتها الجديد، همست إحدى جاراتها لكوكبة النساء المجتمعات بإحدى سقيفات الزقاق (يتبعثر بين أرجلهن أطفال حفاة عراة) وقد أطلقت زفرة فيها رائحة حرقة و شماتة:

«يا ما أحسني ويا ما أجملني لكن السّعد موش مني»...

بعد أيام دلّتها لَلاّ شريفة على «الشيخ مسعود العزّام» الذي. يده تجمّد الماء. ويعمّر أرحام النساء.. بعدما روت لها قصّة لَلاًّ صوفية امرأة سي العربي التي بقيت عاقرا عشر سنوات إلى أن قصدت الشيخ العزّام وأخلصت النيّة وأوفت بالوعود والنذور وأشعلت الشموع... وكانت قد قامت على خدمة أولياء الله الصالحين سنينا طويلة... حتّى ملأ الله بطنها وعمّر بيتها بصبيّ ثم أنجبت البنين والبنات وقرّت عينها وعين زوجها. وقصّة للاّ عربيّة وللّا دوجة وغيرهن كثيرات... المهّم النيّة الصافية والوفاء بالوعود.

عندما زارت «ساسيّة القابسيّه» «الشيخ العزّام» أوّل مرّة. همست له والدمع ينفر من عينيها والغصّة تخنق صوتها: «راجلي يحّب يطلّقني

خاطر ربّي ما أعطانيش أولاد». وظلّت تتردّد عليه من يومها. تأتمر بأوامره وتلبّي كلّ طلباته، في خضوع مشفق حتّى عندما يأمرها بأن تأتي في عزّ الليل فإنّها تطعم أو تسقي زوجها بعض الحشائش التي يعطيها إياها لتخدره طوال الليل... وتخرج مرتجفة، مرعوبة، يدفعها خوفها من الطلاق قبل حلمها بالأولاد.

تلك الليلة لم تصدّق أنها وصلت كتّاب «الشيخ مسعود العزّام» دون أن يراها أحد. دفعت الباب وارتمت على الأرض خائرة هاجعة في ملاءتها الحمراء... أسندت رأسها للحائط شبه غائبة عن الوجود. واقعة تحت سيطرة مجتمع نبذها لـمّا خذلها رحمها متوسّلة الشيخ مسعود آخر أملها.

من خلال أشباح البخور التي تتراقص أمامها. تراءى لها طيف سلفتها يوم عيّرتها بعقمها. عندما أصبحت مريضة ولم تقوى على القيام بدورها في الطبخ. قالت لها يومها: «الحمد لله أن لم يرزقك أولادا وإلا كنت قتلتهم من الجوع». وقد كانت تحرّض عليها زوجها سرّا وعلانية أن يطلّقها ويتزوّج غيرها ليتمتع بالأولاد مثل بقية خلق الله.

استردّت «ساسيّه» أنفاسها ثمّ اقتربت من الشيخ مسعود وهمست له: «نحّب نعرف معاشر امرأة أخرى وإلاّ لا؟».

قام «العزّام» إلى الكانون فرمى به حفنة مخلوطة من لبانّ الذكر والجاوي الأبيض والمصطكي والحنتيت... فعجعج البخور في جوّ الكتّاب المعتم، كالأشباح المستنفرة وفرقع فكأنما أصاب روح الشيخ:

تغيّرت سحنته، لمعت عيناه، حادّتين، حمراوين. اعوّجت شفتاه وانعرجت زاوية شفته السفلى إلى اليمين وسال منها زبد اصفر. امتدّت يده اليمنى فكأنّما يقبض على شيء... تحرك لسانه بأسماء الملوك الروحانية يناديهم ويستنجد بهم... ثمّ أومأ إلى «ساسيّه» فقامت إلى الكانون. فحجّت عليه سبع مرّات وقد تحوّلت إلى ضراعة مطلقة.... حينها قام الشيخ الوصيف إلى زجاجة فصبّ منها مخلوطا في كأس. أضاف إليه سائلا آخر أعطاها إيّاه. أفرغته في جوفها بيد مرتعشة فوقعت غائبة، خائرة وسط غيمات البخور... فقام الشيخ «العزّام» إلى الباب الموارب فأغلقه وأطفأ السّراج وغابا في غياهب الحلم...

كتبت بتونس
ونشرت في مجلة «الحياة الثقافية»
العدد 97 في سبتمبر 1998

طقوس سريّة.... وجحيم

تشرق الشمس على النوافذ لكنها لا توقظ القلب. أيّام ساكنات والأحلام لا تغادر ليلها، تطل كل صباح برؤوسها من جحورها ثم تتراجع أمام صراخ الأطفال، تبديل الحفّاظات، تحضير الرضّاعات، صفير الطناجر، بعثرة حذاء الزوج والجوارب...

تعود الأحلام خائبة إلى أوكارها:

– «هذه امرأة لم نعد نعرفها».

وهذا بيت غريب عنا لم يعد يحفل بنا بيت لا يشرّعُ أبوابه للريح. ولا يخضّر به شجر.

تستيقظ المدينة على أصوات باعتها، أبواق سياراتها وصفيق أبوابها... ولكنَ شيئا كابيا في النفس يغلب عليه النعاس. أتحامل على نفسي آخذ ابني البكر الذي بدأ يجرب المشي، أنزل به إلى السوق وأترك الرضيع نائما بالبيت.

أرمي نفسي وسط حشود الناس وجموع المشترين وعربات الباعة المتجولين لأبلغ السوق.

ينكفئ طقسي السرّي القديم على نفسه... ينفر، يهرب، يتوارى

ويومئ لي من بعيد أن اتبعيني... أهم بالهروب يصرخ الطفل أن احمليني، تتباطأ الرجل، تثقل القفة أتذكر ابني النائم وحده بالبيت فأسرع خطوي. تزداد الهرولة بين السوق والبيت يوما بعد يوم.

– «كل أيامك مهدرات»

يصرخ الحلم المحبط

يهمس الطقس السري القديم:

– «متى سنعود إلى سالف عهدنا؟»

متى سنمارس جنوننا وطفولتنا؟

متى سنعيش إبداعيا على الأرض؟»

يميل الظل يطفئ وهج الشارع

أتذكر موعد الغداء وعودة الزوج.

أسرع أكثر.

تستوقفني فجأة يد مصافحة لم ألمسها منذ أربع سنوات.

– «صباح الخير يا مدام!»

– «الدكتور جعفر العلاّق مرحبا كيف حالك؟»

– «كيف حالك أنت؟ منذ تخرجت من الكلية لم أرك ولم أسمع أخبارك. سوى أنك تزوجت من أحد المعجبين بشعرك أيام الجامعة».

- «نعم تزوجت وأنجبت».

- ينظر إلى ابني: «صار لك ابن ما شاء الله».

أصحّح «بل ابنان، الآخر بالبيت».

- يقول: «والشعر؟»

أبلع غصتي: الشعر صار كالكحول السريّ رائحته من رائحة المنكر.

يلاحقني الدكتور بأسئلته:

- «مالك صمتِ؟ أين هو الشعر من حياتك؟»

- «لقد أصبح مشروعا مؤجلا ينتظر أن يكبر الأطفال».

يبدي الدكتور استغرابا

ما علاقة الشعر بالأطفال؟

أو هكذا أنتن «النسوان» لا تنتظرن من الدنيا سوى عريس إذا وجدتنه أسقطتن العالم وأقبرتن مواهبكن «. ....».

مضى الدكتور إلى حاله ومضيت إلى البيت:

كأنني أعتّبه لأول مرة.

كأنه يستقبل امرأة غيري.

كلمات الدكتور تسبقني إلى أركانه... تخلخلها... تقوّضها... انحني على سرير ابني أتفقده.

صراخه يختلط بصرخات أخرى في داخلي.. أشياء البيت توترني، تُعثّرني، تبعثرني... فوضاه تؤججني كجمرة خامدة تحت الرماد هبّت عليها رياح شتويّة.

أركض بساعات النهار نحو ليل لن يأتي هذه الليلة كما يأتي كل ليلة.

في السرير تمتد يد زوجي تمسح الجسد طولا وعرضا فلا تأخذ طريقها كالعادة إلى منعرجاته ومنزلقا ته.

يستعصى الجسد.. تتلقى اليد أولى خيباتها.

ترسم مغتاظة علامات استفهامها.

بينما كلمات الدكتور جعفر العلاّق تدّب تحت الجلد دبيب الدود في العفن. والشعر؟... أين هو الشعر من حياتك؟... هكذا أنتن النسوان... إذا تزوجتن... أقبرتن مواهبكن...».

تمضي اليد متوسّلة حينا معنّفة حينا آخر... لا يزداد الجسد إلا تخشبا... تتوتر اليد تشد بعنف طيّات اللحم.... بينما الدماء تجري بنيران جديدة لا تطالها اليد التي تعبث قليلا... تتسكع على سطح الجسد ثم يغلب عليها النعاس فتسقط هاجعة.

وفي انعكاسات نور متقاطع متكسّر على أجساد لم تعد تركن لبعضها اسمع شخيره فيهدأ روعي ويرتخي جسدي.

أمسك قلما وانتشر من جديد بين البياض.

تقبل عليَ أحلامي كما يقبل الفلاح على النهر.

أستعيد طقسي السري القديم...

تفيض النفس بما يتزاحم فيها...

يلين الجسد كغصن ريان يورق من جديد...

فجأة ينقطع الشخير.

تعود اليد آليا تجوس بين الوريقات اليانعة...

«ماذا أصابكِ منذ قليل؟»

« أتركني رجاء أريد أن أكتب»

«أكتبي في أوقات الفراغ...»

«هذا الليل لي!»

– «واجبك كزوجة إن لم تؤده أوّل الليل لا يسقط عنك آخر الليل».

– أوف «صالح» يكفي من المزاح

– أنا لا أمزح... ليس الوقت وقت كتابة.

- بالروح قصيدة معلقة

- سأكتفي بالجسد وأترك الروح للقصيدة تعالي...

تمسّني رياح جنونية... أهّب واقفة كشجرة تهرب من فأس حطاب يريد شقها شطرين، لتواجه معزولة العاصفة.

لم أخلع قميص نومي تلك الليلة ولكني كنت كشجرة خريف تسقط عنها، أوراقها شيئا فشيئا... لم يعد هناك ما يدعو للتستر على الحلم.

يكسوني العناد ويغلفني درع من دروع تلك الحروب القديمة المندلعة بين الموت والحياة.

الملم أوراقي وأخرج كأنني أهرب حشيشا أو مخدرات... ترافقني ظلال سوداء حتى قاعة الجلوس التي وجدتها باردة.

تجرني رجلاني إلى المطبخ المكان الوحيد الذي يحتفظ بحرارته ورائحته في هذا البيت. أعددت قهوة تركية سبقتني رائحتها إلى الصالون. أغلقت بابه على نفسي. اعتذرت للبياض الذي كان ينتظرني، كعاشق صبّ يعود إلى حبيبته بعد طول جفاء. عانقت الحروف بعضها.

على هذه المساحة البيضاء سيحدث النصر.

سيأخذ المداد لون العناد

عاد الليل إلى طقوسه وعادت الحروف إلى الورق. كما تعود الطيور المهاجرة إلى أوطانها وامتلأت سمائي بأسراب السنونو والخطاف... وانفتحت في الكون سماوات جديدة

وبدأت أعيد ترتيب العالم من جديد

وأهيئ نفسي لعمر لا يفنى...

لما أنخلع الباب وانتصبت على العتبة قامة رجل كنت أعرفه. لكنه بدا لي الليلة بشعا مترهلا أكثر من العادة...كقاطع طريق منزوع من سلاحه، لا يزيّنه سيفه تقدم نحوي كالحيوان الجريح.

– «أتدرين ما يسمى ما فعلته الآن؟».

– «أنا لا أعرف إلا شيئا واحدا هو أني في حالة كتابة».

– «أنت في حالة نشوز. أنت ناشز».

– «فليكن!»

– «أنسيت أنك زوجة ولك واجبات؟».

– «أتركني رجاء أنا لا أفعل سوى المطالبة بحقوقي».

هو أيضا عنيد والمسألة بالنسبة إليه مسألة حياة أو موت.

انحنى عليّ وقد خلت أنفاسه من كل حرارة وأُفرغت حركاته من كل إغراء.

دفعته بمرفقي. شدّني بعنف...

نظرت البيت فبدا لي غبارا ثائرا وقد قوّضت أركانه.

هبت رياح في داخلي. تبعثرني بين الخضوع والتمرد فكرت بابنيَ النائمين في الغرفة الأخرى...

استيقظت فيّ امرأة راقدة من غابر الأزمنة:

«إن أنت استسلمت فسأغادرك إلى الأبد.»

جاء صوت الحيوان الجريح:

- «إن أنت تصلبت فسأجعلك تندمين إلى الأبد.

- تدخل صوت أمي من تحت سابع لحد.

- «يا ابنتي المرأة ليس لها سوى زوجها وأولادها».

جاء صوت القلم:

«أنا الذي أخرجتك من القطيع فلا تعودي لعصا الراعي».

«لا أدري أي شيطان آخر دخل بصوته على الخط».

«لا تكبري المسائل وتخربي بيتك بيديك تعرفين زوجك عنيد ولا ينام مهزوما. وتعرفين كيف ينتقم وقد هدّدك سابقا بالطلاق».

- لم يكن «صالح» يمهلني التفكير أو الاختيار فقد كان يتوعد ويهدد يهتز فوقي وينتفض حتى همد.

ثم تركني وخرج. عند الباب التفت إليّ قائلا:

بإمكانك أن تكتبي الآن!...

قمت إلى الدش أفتحه أطلت الوقوف تحته... ساعات والماء يغمرني ولا يغسلني... عندما خرجت من الحمام لم أجده.

كان قد غادر إلى الجامعة ليبدأ محاضراته. عن الحريات وحقوق الإنسان.

كتبت في تونس ونشرت في جريدة
«أخبار الأدب» المصرية 9 مارس 1997
في ملحق جريدة الصحافة التونسية «الورقات الثقافية»
في 2 جوان 2006
مجلة «الحياة الثقافية» العدد 95 ماي 1998
وفي مجلة الراوي السعودية 2000

«أنا وفرنسوا...
وجسدي المبعثر على العتبة»

مرمر البيت العتيق يغفو مطمئنا تحت برودة وسكون السقف المعتّم بالأسرار، غير مكترث لظهيرة «أوّسو» التي تستعر في صحن الدار.... فجهنم على العتبات تنتظر وراء الأبواب تتلصص... تتلهف... تنتظر من سيرتكب تلك المعصية....

وأنا مثلها أنتظر... أتلهّف... ولكن امتنع عن ارتكاب أجمل المعاصي إلا معك...

أتقلب بجسدي من سرير إلى سرير ثمّ أرتمي على أرض المرمر البارد... طامعة في إغفاءة مثل إغفاءته... يساورني شك يفسد عليّ نومتي: هل لمحك أحد البارحة و أنت تدخل عندي؟..

فـ«الآخر» جحيم مترصد بالأبواب المواربة... يطوف بالأسوار العالية... ويتنصت أحاديث السقائف المغلقة... وأرحم منه جهنم لأنها مشروع مؤجل إلى الأبد...

قضيت سنين أُهرّب ألمك وفرحك كما أهرب رسائلك وصورك من درج إلى درج وأُطبق على الألق الساكن في العيون... وأضغط على النبض الخافق في القلب...

فالقبيلة لم تعبق قط برائحة الأمان منذ ساح بها سرّ ليلى الأخيلية وليلى العامرية بثينة... ممّن لم يمسّهن ترف الجنون ولا تمتعن برحمة التيه هائمات طليقات في الصحراء... بل اكتفين بابتلاع جمرات عشقهن غصصا... فالشاعرات اللوّاتي تطاولن وعتّبن رقعة البوح تخضبن بدماء الكلمات فسكتت قلوبهن وأنفاسهن ولم تصلنا أشعارهن أبدا، ما أصعب أوجاع الصمت... ما أصعب أن نحب في صمت... أن نجن في صمت... أن نموت في صمت...

وحدها جهنم تعرف حرقة الصمت... وتعرف عذابات إخفاء رائحة رجل نُحبّه... لأنها وحدها العبقة بأخبار المحبين وأسرار الموّلهين قصص العاشقين...

لقد حوا جسدي الحرائق كلّها والتهبت كفي الماسكة على سرّه... وأسدلت الجفون على الوهج الهاتك للأسرار...

أتقلب على أرض المرمر البارد... أتحسس بأطراف أصابعي خطوط شقوقه المتعرجة... أُسَر لهذه الشقوق التي تُكسر صلابته، أُلصق خدّي ببلاطه فيتسلق إلى أُذني أنين الماضي ينز من بين شقوقه على أيّام ولّت ورحلت دون التفاتة حنين...

يحتضن المرمر الموشوم بنزيف الماضي دقات القلب المكلوم، نتوسد جراحنا وننام كصديقين ينتميان لنفس الطعنة، خيط سريّ يجمع بيننا يسري صمتا مأهولا بنزيف الزمن... أغمضت عينيّ: «فغرق المرمر الأبيض في دماء ساخنة... ساح دم لا يكترث له أحد كدم شهيد في بلاد غريبة، تضمّخت الشقوق بالدماء دون أن ترتوي... فالثأر قديم بين الجرح والزمن... والوجع ثقيل ثقل الدهر على ظهر مقصوم بالكتمان».

تلك العتبة كانت قد احتضنت لقاءنا الأول بتونس:

عندما فتحت له الباب رمى حقائبه في السقيفة وسحبني إلى صدره... كان ممتلئا وهادرا كأمواج قطعت البحار السبعة لتتلاشى رذاذا رطبا على صدري...

ضمّني «فرنسوا» حتّى ذاب المرمر الصلب تحت أقدامنا... تراجعت الدنيا عن قسوتها... تقلّصت المسافات وانحنت السماء وانبسط الدهر وغفر الإله...

عندما ألقيت رأسي على كتفه أدركت كم أنا متعبة ومكابرة....

ألقيت رأسي وتركت شفتيه تتحسّسان الطريق إلى قلبي...كان نبضه خافقا كجناح طائر مقرور وجد عشّه بعد طول ضياع... مع نبضه سمعت وقع خطوات وراء الباب ...غائبة عن العيون رأيت عين الرقيب تتسلل مع أنفاس الهواء، تخرج من ثقوب الأبواب ومن

شقوق الجدران... لتفسد إيقاع قلبي: «من المستحيل أن يكون قد مرّ بالزقاق وبحقائبه دون أن تضبطه عيونهنّ من وراء ثقب الأبواب».

اخترقتني فجأة نسائم خريفيّة باردة وموحشة... بينما كان الربيع يزهر في داخله...

حاولت أن أرمي العالم وراء ظهري كما كنّا نلتقي في باريس وأكون له وحده فوجدت العالم ثقيلا كالدهر...كالذنب...

حاولت أن انساب تحت جلده... أن استبدل دمي المرعوب بدمائه «البيضاء» التي لم يحاسبه عليها أحد... أن أصفّي دمي من روائح الرعب القديمة العبقة من السنة لهب القبيلة... بصعوبة غمدت رأسي في صدره...

كان «فرنسوا» غارقا في صلاة لوجه قلبه ومشاعره وأحاسيسه... وكنت أنا مبعثرة على العتبة بعضي في الداخل وبعضي في الخارج...

يبدو أنّنا لا ننتمي إلى نفس العتبة ولا إلى نفس الطقس ولا إلى نفس التاريخ...

لكنّ «فرنسوا» سيحاسبني فيما بعد عن ذلك التبعثر، عن ذلك الانقطاع عن «الصلاة» كما يحاسب إله عبدا أشرك به. لقد أدرك بحدس العاشق الصّوفي الخالص أنني لم أكن كليّا معه وأنني لم أَسرِ صافية في دمائه الحارّة...

كيف أقنعه أن دمي الملوّث بموروث فيروسات القبيلة هو نفسه المحترق شوقا للقائه؟

من الصعب أن يفهم!

كتبت في تونس ونشرت في مجلة «الحياة الثقافية»
عدد 118 سبتمبر 2006
وفي ملحق جريدة الصحافة: «الورقات الثقافية»
15 جوان 2007
مجلة «نساء» ط مصرية يناير 2008

أربع قصص قصيرة

تطبيـع

مثل كلّ سنة، عمّت الأمطار البلاد وتهاطلت. فاستبشر النّاس وتفاءلوا. ولكنّها لم تتوقف. فجزع الناس عندما جرفت الفيضانات، الزرع. وأهلكت الماشية. وغرق العباد في الوديان... هبّت فرق الإنقاذ. وتجنّد الناس في هلع، لنجدة بعضهم. وتبرّعت الجمعيات وتوزّعت المساعدات... وتنقل رئيس الوزراء شخصيّا. محفوفا بأعضاء حكومته. لزيارة المناطق المنكوبة. وأمام هول الفاجعة ومن تحت مطريته، التي يغطيه بها أحد أعوانه. قرّر تشكيل: «لجنة متابعة للأزمة» مهمّتها وضع برنامج لإنقاذ الناس، ومساعدتهم. والاحتياط لفصل الشتاء القادم. والتوصية بتحسين البنية التحتية. والتأكيد على بناء الجسور. وتحصين السدود وتعبيد الطرقات... واجتمعت اللجنة. وصادف أن كان اليوم صحوا. انقشعت فيه السحب وأشرقت الشمس. وزقزقت العصافير... فتفرّق أعضاء اللجنة: كلّ يريد قضاء شؤونه الخاصة، في انتظار غيمة أخرى.

باريس 25 اكتوبر 2018

غربة الجنّة...

البارحة رأيتني في المنام: امرأة جميلة جدًا.

حتّى أنّني لما متُّ، صُنّفت حوريّة من حوريّات الجنّة.

تزاحم وتدافع نحوي رجال كُثر...

رجال مشوّهة جباههم.

شعرت بغربة.

قمت، مذعورة، فزعة:

لم يكن بينهم الرّجل الذي أحّبّ.

تونس 12 / 9 / 2019

غيـاب

البارحة، تعارفنا.

من أمام عتبتها. قدّمت لي جارتي الجديدة نفسها. قالت أنّ لها ثلاثة أبناء:

الأكبر يدرس الطبّ بالجامعة.

البنت الوسطى بالثانوية العامّة.

والابن الأصغر بالابتدائي.

وأنّ زوجها يشتغل مستشارا قانونيا، بشركة خاصة.

رحبت بها. وعندما أغلقت باب داري ودخلت.

تذكرت أنّها لم تذكر شيئا عن ذاتها.

تونس 2021/08/26

سرير العلاج النفسي

هذه المدة بالذات بتُّ فعلا اخشي على نفسي. فقد أصبحت مدمنة لهذا الفضاء الافتراضي:

«الفايس بوك» أسكن فيه وأكاد لا أفارقة. صار هو أهلي وشغلي وأحبتي وناسي وبيتي... وقت الأكل أضع الجهاز، مفتوحا، أمامي على الطاولة. وعند النوم، أضعه قريبا من مخدتي حتى أسمع إشعاراته... وعندما أخرج، لقضاء بعض شؤوني، أشعر بغربة، فأعود إليه متلهفة. حتى صرت أتساءل: أيهما الحقيقي وأيهما الافتراضي في حياتي؟ وعندما تفاقم الأمر، فكّرت جديّا في زيارة طبيب نفساني.

في قاعة الانتظار، فتحت موبايلي. وتمنيت لو أن دوري يتأخر، لأبحر في عالمي الافتراضي أكثر... عندما كان الطبيب يستمع لي. وأنا أحدثه عن إدماني وقلقي... لاحظت انه بين فينة وأخرى يلقى نظرة على جهازه. وعرفت بحكم الخبرة، انه مفتوح على «الفايس بوك».

تونس 5 نوفمبر 2019